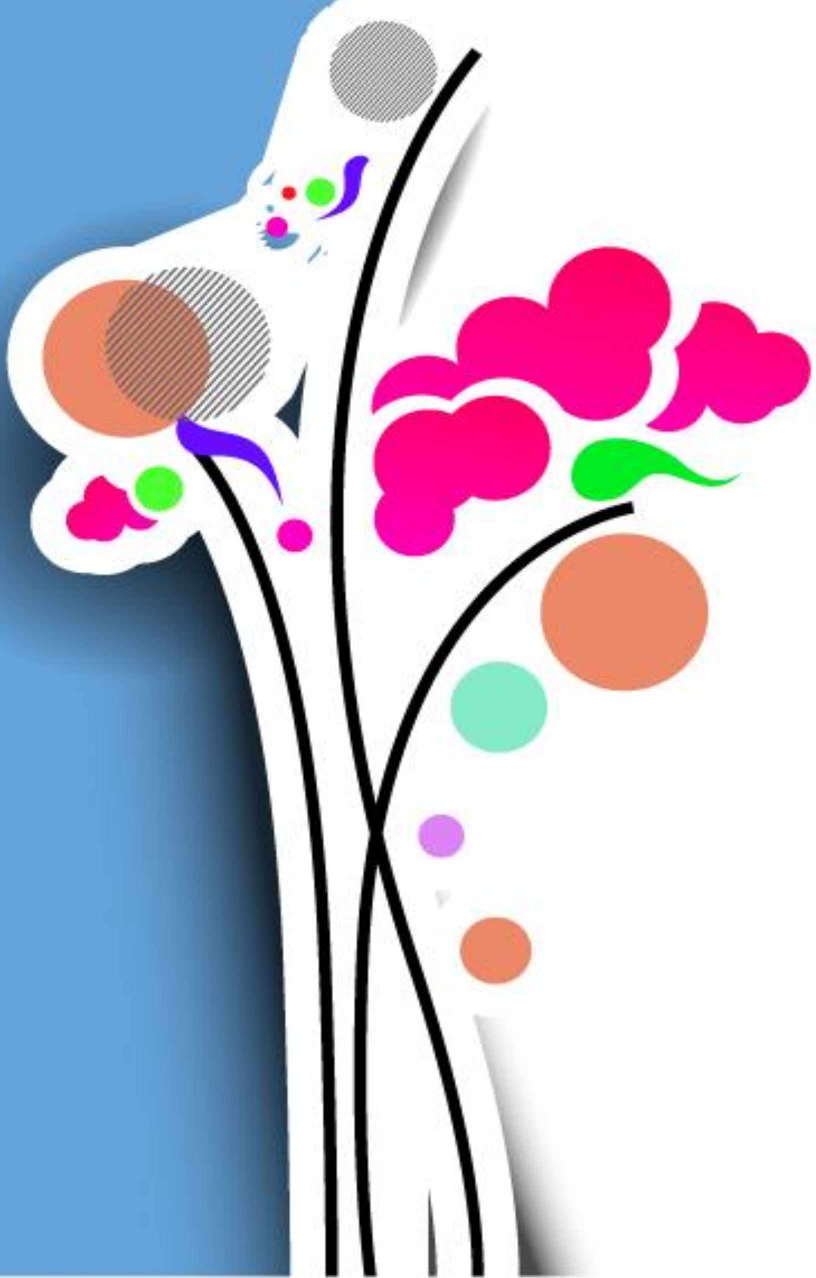

اسم الرقيب

أ. أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تتنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبتدئ كلامنا اليوم حول اسم عظيم من أسماء الله –عز وجل– هو اسم (الرقيب)،ونحن عادة نشرح الاسم من كتاب (فقه الأسماء الحسنى) للشيخ عبد الرزاق البدر؛ ولكن يجدر بنا أولًا أن نُذكّر أنفسنا بأهمية هذا العلم العظيم الذي على أساسه تُبنى العلوم وتصلح القلوب، وهذه القلوب مهما تناقشنا في أهمية صلاحها، وأثر ذلك على صلاح الإنسان عمومًا، وكيف أن كل الاختبارات تدور حولها، وكيف أنَّ البركات تنزل من السماء عليها؛ فلن نوفي الموضوع حقه، وسيطول بنا المقام، لذلك يكفينا في هذا ما نحفظ من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ)) [1].

وإذا كان صلاح الجسد كله في صلاحها؛ فما الذي يصلحها؟

لو نظرت إلى كتاب الله تعالى؛ ستجد أنه يدور من فاتحته إلى خاتمته حول معرفة الله تعالى: أسماءً، وأوصافًا، وأفعالًا، وأخبارًا؛ فلابد أن وراء هذا مقصدًا عظيمًا، يؤثر تأثيرًا بالغًا في صلاح القلب، فكيف يكون ذلك؟

خلق الله الإنسان ليعبده، وجعل صلاح قلبه، وسعادته في ذلك، ولن تتأتى منه هذه العبودية كما ينبغي إلا إن عرفه سبحانه؛ وإلا فكيف سيوحد ربه في (خوفه، ورجائه، وحبه) من لا يعرف أن له من كمال الصفات ما يوجب له هذا التوحيد؟! كيف سيوحده في صرف كل هذه المشاعر له من لا يعرف كماله المستحق لهذه المشاعر؟!

[1] متفق عليه.

لن تصلح القلوب إلا بتحقيق ما خلقت لأجله، وقد خلقت لتحقيق (لا إله إلا الله)، ولأجل هذا التأليه قامت السموات والأرض، ولن يقوم هذا التأليه إلا على جذور وساق العلم عن الله ومعرفته.

إن من يسعد بمعرفة معنى (لا إله إلا الله)؛ سيعلم أنها ما جعلت عنوانًا لنجاتنا إلا لأجل توحيد الحب والخوف والرجاء، وما كان رجاء كل مسلم هو أن يحيا ويموت عليها إلا لأجل هذا التوحيد، وإن الفئة التي تقتصر أمانيها على أن تموت وهي تتلفظ ب: (لا إله إلا الله) ؛دون أن تسعى لأن تعيش الحياة بها؛ لهي فئة قد نالها من الخسار ما نالها، وذلك حين جهلت أن هذه الكلمة العظيمة كما هي مفتاح جنة الآخرة؛ فهي أيضًا مفتاح جنة الروح في الدنيا، ولن يذوق قلب طعم السكينة من غير تحقيقها؛ بل سيبقى لاهثًا وراء رضا هذا وذاك، متشتتًا في مفاوز الحياة، له شركاء متشاكسون إن أرضى أحدهم سخط عليه الآخر، حتى يشتعل الرأس شيبًا، وما اشتعل أمام ناظريه نور التوحيد!

يكفيك لتعرف وزن هذه الكلمة عند الله أن تقرأ هذا الحديث قراءة واعية: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: ((قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبِّ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ كَانَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعُ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) .[1]

فما سبب هذه المكانة العظيمة؟ ما الذي يثقل ميزان قائلها كل هذا الثقل؟ أظننت أن كل من قال " لا إله إلا الله "يثْقل ميزانه؟

قال صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)) ، هذا دليل مطلق يُحمل على الأدلة المقيدة، فقد ورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ) وورد أيضا (لَئِنْ وَافَى عَبْدٌ[2] يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ، إِلَّا حُرِّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ) ، وكل هذه أدلة على أن لها شروطا، و **سورة الحديد تبين لنا أتم البيان**

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

[2] صحيح ابن حبان، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

أن المؤمن والمنافق يشتركان في قول (لا إله إلا الله)؛ لكنهما لا يشتركان في منفعتها، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} ، فالقوم يسيرون معًا، و يكون للمنافقين نور على قدر ما كان معهم من ظاهر الأعمال، ثم فجأة في الظلمة العظيمة ينطفئ نورهم، ويرون من كان معهم من المؤمنين يسيرون ومعهم نور، فيقولون لهم: { انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} فيقال لهم:ارجعوا حيث فقدتم نوركم فالتمسوا نورًا.

ثم تأتي المصيبة العظيمة، المسألة التي لابد أن تفكّر بها دائمًا: {ينادونهم}: المنافقون ينادون أهل الإيمان: { أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى} كانوا معهم يشهدون شهادتهم، ويصلون صلاتهم، ويصومون صيامهم، ويجاهدون جهادهم؛ { وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} .[4]

لا بد أن نفهم أن جمعاً كلهم يقولون لا إله إلا الله لا يستوون؛ بل يفترقون على قدر ما لهذه الكلمة من وزن بدواخلهم.

من أين يأتي الوزن؟ من أين يأتي الثُّقل؟

يأتي من فهم معنى (إله)، ثم تغذية هذا المعنى بغذائه الشريف، وهو معرفة الله، وعلى هذا كان من أهم الأمور أن نتطرق لمعنى كلمة (إله)، وسيتبين لنا من خلال ذلك كيف أن هذا المعنى يحتاج أن يغذى بالعلم عن الله طول الحياة، وستتبين لنا رحمة الله في كون القرآن من أوله لآخره يخبرنا عن صفات إلهنا؛ إذ أنه بلا شك يخبرنا عما فيه صلاح قلوبنا لمجاورة ربنا وقربه وإكرامه:

ما معنى الإله؟ الإله هو: المحبوب غاية الحب، المعَظَّم غاية التعظيم، فالقلب يُؤلهُهُ، أي: يحبه غاية المحبة، ويُعظمه غاية التعظيم.

صحيح البخاري كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ الحِرْصِ عَلَى الحَدِيثِ، ٩٩.

مسند الإمام أحمد، إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[الحديد: ١٣] 3

[الحديد: ١٤] 4

خلق هذا المكان الذي هو قلبك من أجل أن يُعظِّم الله حق تعظيمه، ويتعلق به حق تعلقه،(هذا هو التأليه)، ولكي يتحقق هذ لابد أن يتغذى.

من أجل أن يحيا القلب حياته الحقيقة التي هي (حب الله و تعظيم الله) لابد أن يُغذى، فما هو غذاؤه؟

غذاء القلب الذي يثمر الحب والتعظيم هو المعرفة!

معرفة الله كالسهم المطبّب إذا وصل لقلبك حَمَلَ طِبًّا يسري في دمائك؛ فيعظم الله في قلبك، وتعظم محبته، مما يعالجك من كل التعلقات بسواه!

سبب ضعف (لا إله إلا الله) في قلوبنا هو ضعف العلم عن الله سبحانه وتعالى، وكلما ازددت عنه علما؛ ازددت حبًا له وتعظيمًا، واعلم أن الرقيب ينظر إلى قلبك، ويراقب (لا إله إلا الله) فيه، يراقب ضعفها من قوتها، وليس هناك سبب لتقويتها في القلب إلا العلم عن الله!

لهذا انظر ماذا قال الله لنا بعد آية الكرسي:

في آية الكرسي عرفنا الله بخمسة أسماء من أسمائه، وبما يقارب عشرين صفة من صفاته، ثم قال بعدها: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، أي: بعد أن عرفت ربك بأسمائه وصفاته لن ننقلك إلى الدين بالإكراه؛ فإن من شأن هذه المعرفة أن تسبب الذل والانكسار الاختياري!

كيف لا؛ وقد عرفت أنه الحي القيوم، الذي له ما في السموات والأرض، وله الملك، وله الأمر، العزيز الذي ينفذ أمره، العلي العظيم، كيف تحتاج بعدها للإكراه في الدين؟!

ولمن كان له عقل: { قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }، فيا من تفرق بين الرشد والغي: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }؛ {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ}: كل شيء طغى وعلا في قلبه يطرده، ويكفر به، (والطاغوت: كل ما تجاوز حده حبًا أو تعظيمًا)، {وَيُؤْمِن بِاللَّهِ}: يؤمن أنه لا يستحق التعلق والتعظيم إلا هو؛ {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1]

قد استمسك بالعروة الوثقى التي توصله إلى الجنة بأمره سبحانه وتعالى، وعلى ذلك لن تكون صاحب العروة الوثقى التي هي (لا إله إلا الله) إلا إذا علمت عن الله، وإذا علمت عن الله كفرت بكل أحد، طردته خارجًا، وصارت هذه (لا) في كلمة (لا إله إلا الله) تقوم بدورين في حياتك:

١-الدور الأول: (لا) كانسة، تكنس ما في القلب من تعلُّقات بغير الله وتُقطعها تقطيعًا، وهذا لا يكون بين يوم و ليلة، وإنما بالجهاد طول الحياة، حتى يخرج الله تعالى ما سواه من قلبك.

٢-الدور الثاني: (لا) حارسة، تحرس القلب من أن (يضخّم،ويعظم) أحدًا غير الله عز وجل.

كل هذا الكلام له أدلته؛ فلو قلت مثلا: هل سأخرج من قلبي الآباء والأبناء والأزواج وكل المحاب الطبيعية؟

نقول: يقول الله عز وجل في سورة الرعد {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ}[2] يعني هؤلاء {الذين يصلونَ ما أمر الله به أن يوصل } قلوبهم ليست لأحد غير الله، ثم يأتي من قلوبهم (عُرى).

العروة: هي الشيء المتصل مع بعضه الذي يستمسك به ويعتصم به، والعروة من الثوب هي مدخل زره، ومن الشجر: هي ما له أصل باق في الأرض، فإذا أمحل الناس عصمت العروة الماشية فتبلغت بها، و في الحديث:

---

١ [البقرة: ٢٥٦]
٢ [الرعد: ٢١]

(أوثق عُرَى الإيمان: الحب في الله و البغض في الله) [1]

ويأتي في الآية: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} يعني لا يوجد في قلبك إلا الله وحده، ثم تمد العرى من أجل الله.

ثم تأتينا آية التوبة تحذّرنا من أن يتضخم أحد في قلوبنا؛ فيتعدى ويطغى، ويتجاوز قدره، وتبين لنا بعض أسباب ضعف لا إله إلا الله: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} :إذا كان هؤلاء أحب إليكم؛ ف: (تربصوا): انتظروا ما سينزل عليكم.

فإذًا: ممنوع أن يتضخم أحد حتى المحاب الطبيعية، والآية غاية في الصراحة والوضوح، فكلما وجدت أن الله يُربّيك لتُقطّع عروق تعلقك بغيره، ويُربّيك لتزداد تعظيمًا له، فاعلم أنه ما أراد بك إلا الرحمة، انظر إلى نفسك عندما تُقبل على أحد من الخلق بكل قوتك على أنه سيعطيك؛ ثم لايعطيك، واعلم هنا أن الرحمن الرحيم لطَفَ بقلبك، لأنه لو أعطاك لتعلق قلبك به، فهذا من تمام رحمته.

معنى ذلك: أن (لا إله إلا الله) تملأ القلب بقدر ما تغذيها بالعلم عن الله، وكلما علمت عنه أكثر؛ كلما أبقيت قلبك له، وكلما أبقيت الـ (لا) حارسة على قلبك، فلما تمر بك الأيام والأحداث ماذا تفعل؟ كلما أجرى الله إحسانًا لك على يد أحد من خلقه؛ فأخذ هذا المخلوق يتضخم في عينيك؛ أوقفته لا إله إلا الله التي سبق لك تغذيتها بما تستحقه من المعاني، والمفاهيم، وقالت له: توقف! لا مُحسن على الحقيقة إلا الله؛ إن أنت إلا سبب، قد خلت من قبلك أسباب، وستخلفك أسباب، وما الخير إلا من عند الله الرحمن الرحيم: **آمنت بالله و كفرت بكل ما سواه!**

---

[1]

[2] [التوبة: ٢٤]

حق غير الله أن أشكره بلساني؛ أما حمد قلبي فليس لأحد غير الله!

هل ترى من منفذ للشقاء إلى مثل هذا القلب في الدنيا، أو في الآخرة؟!

ألا ليت غرارة الشباب تعي هذا!

إن عمرًا تقطعه من أجل أن تعلم عن الله؛ لهو عمر غال عند الله، يعطيه من الجدارة ما يؤهله لنجاتك؛ فإن أهل الإيمان بفضل الله في منْأَى عن النفاق، لأنهم يعرفون الله؛ فيحبونه ويعظمونه، وهذا الفارق الشاسع بين المؤمنين والمنافقين، فمعرفة الله سبب لخروج الإنسان من وصف النفاق إلى وصف الإيمان،

وهذا الذي يجعلنا نقول عن قوم وقعوا في النفاق أنهم قوم ما عرفوا الله، فلو عرفوا مثلا أن الله رقيب؛ لما أخبروا الناس أنهم مؤمنين، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}[١]

لو كانوا يعرفون الله لعلموا أنهم أينما خلوا سيبقى الله معهم.

إذًا: قدمك تثبت على الإيمان على قدر معرفتك بالله؛ فإذا عرفت الله عرفت حقه عليك، وجدير بنا أن نذكر هنا معنى اسم (الله)، هذا الاسم العظيم معناه هو الذي يجعل الإنسان يضع خطًا فاصلًا بين الإيمان والنفاق، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: معنى (الله): ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

الله هو المستحق للتأليه صاحب العبودية، فكونك تعتقد أنه صاحب الألوهية، والعبودية، يعني المستحق للتعظيم كله، وللمحبة كلها،لأنه كامل الصفات

١ [البقرة: ١٤]

يعني من يستحق تأليه قلبك يا مؤمن؟ الله

من يستحق أن تكون ذليلًا أمامه؟ الله.

لماذا؟ لأنه كامل الصفات

إذًا: الله ذو الألوهية على خلقه أجمعين، يعني قلبك امتلأ محبة لله وتعظيمًا له، وبذلك حققت الألوهية، فإذا حققت الألوهية أتت العبودية، وهي وصف ذاك العبد المنكسر بقلبه بين يدي ربه، الذي يقف في صلاته واضعًا يده اليمنى على اليسرى، مطأطئ الرأس والعينين إلى الأرض؛ فلا تجعل الصورة صورة عبد ذليل والقلب في أودية الدنيا يهيم!

يجب أن تحقق أنه إلهك الذي تُعظِّمه وتحبّه لكمال صفاته، ثم تُحقق أنّ قلبك دائمًا بين يديه ذليل، ليس لك حول ولا قوة إلا به، لا يأتيك بالأسباب إلا هو، لا ينفعك بالأسباب إلا هو، لا يعطي و لا يمنع إلا هو {وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ}[1] فكل تدبير الحياة على هذا الواحد سبحانه و تعالى.

تبين بهذا أنه بالعلم عن الله تأخذ (لا إله إلا الله) ثقلها في القلب، ومن أهم أبواب العلم عن الله العلم بأسمائه، ومن الأسماء التي تزيد التأليه في القلب: اسم الرقيب سبحانه وتعالى.

سنسير في شرحنا كالعادة: كل اسم نناقشه لابد أن نعرف أين ورد.

لمعرفة مصدر الاسم، والسياق الذي ورد فيه ثلاث فوائد:

- متابعة الكتاب والسنة؛ فنُثبت ما أثبته الله لنفسه أو على لسان رسوله.
- مكان وجود الاسم مهم؛ لأن السياق يؤثر على فهمنا له؛ فلا بد من معرفة الآية.

---

١ [يونس: ١٠٧]

- يساعد السياق في التفسير والحفظ، بل في إتقان الحفظ.

ورد اسم الرقيب في كتاب الله في ثلاثة مواطن:

- في أول سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[١]
- في آخر سورة المائدة {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}[٢]
- في أواخر سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا}

كيف أدرس الاسم؟ أمر مهم لدراسة الاسم هو أن أفهمه من مكانه في الآية، أو من مكانه في الحديث.

ننظر للخطاب في آية النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} خطاب لكل الناس مؤمنهم وكافرهم {اتَّقُوا رَبَّكُمُ}هنا إثبات لاسم (الرب)، الذي ماذا فعل لكم؟ {الَّذِي خَلَقَكُم} هذا ذكر لأصل البشرية، خلقكم من ماذا؟ {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} هذا وصف لكل البشرية {وَاتَّقُوا اللَّهَ} أتى الأمر (بالتقوى) مرتين: مرة اتقوا (ربكم)، ومرة اتقوا (الله) {الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ} ثم هذه (التقوى) يأتي بعدها {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}.

---

١ [النساء: ١]

٢ [المائدة: ١١٧]

إذًا سأبحث في أربعة أمور:

- ما علاقة (الرقيب) بالتقوى؟ لأننا أمرنا بالتقوى مرتين، وفي آخر الآية أخبرنا أن الله كان علينا رقيبًا؛ فلابد من وجود علاقة.
- ما العلاقة بين اسم الرب واسم الرقيب؟
- ما العلاقة بين اسم (الله) واسم (الرقيب)؟

عندما أفهم هذه الأسئلة الثلاثة؛ سأصل للسؤال الرابع.

التقوى أحد المفاهيم التي كُررت في كتاب الله، ووصف هؤلاء المتقين أن الله يحبهم {إن الله يحب المتقين}.

هذه التقوى عبادة مكانها القلب؛ فمن المؤكد أن لها علاقة بالرقابة.

خلق الله الموت و الحياة ليختبرنا، فمن وقت بلوغ الإنسان يدخل قاعة الاختبار، ولا يخرج منها إلا وقت الموت، وتترتب على درجات النجاح درجات الجنة!

أين وكيف يعقد هذا الاختبار؟ يُعْقد هذا الاختبار في القلب، كأنك ترى طاولة مفاوضات لها طرفان، على اليمين: العلم والإيمان، وعلى الشمال: الهوى والشيطان، ثم تبدأ المنازعة بينهما، وتبدأ عملية الجهاد؛ فإذا غلب العلم والإيمان كان هذا الفائز من أهل التقوى، وإذا غلب الهوى والشيطان كان من ضدها.

ويحصل هذا في القلب بعدد اللحظات والدقائق و الأيام؛ بل يصل هذا إلى أن يكون بعدد الأنفاس.

وإليك بعض الأمور التي تبين علاقة الرقيب بالتقوى:

١ــ مراقبته سبحانه لأمراض قلبك و مجاهداتك في إصلاحها: الله ينظر إلى قلبك هل هو مصاب بالكبر أو الحسد أو الرياء، أو إرادة العلو؟

هل تحب أن تكون أحسن من كل أحد، وكل أحد أقل منك، كل هذه الأمراض ينظر إليها الله –عز وجل–وأنت تمارسها أو تدافعها،

يمكن أن يقع منك التكبر والناس كلهم لا يعلمون، والكبر هذا تكفي منه ذرة، ففي الحديث: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" لاحظ: (في قلبه) إذًا مكان الكبر: القلب، كيف ستدفع هذا الكبر؟ بأن تعتقد أن الله ينظر إلى قلبك وأنت متكبر، فتستحي من نظر الله إليك، ثم سيتبين لنا أن هناك معنى زائدًا على مجرد المراقبة، وهو أن الرقيب يأتي بمعنى الحفيظ للأعمال، ولذلك هذه الأمراض التي تكون في القلوب تُعرض على الانسان يوم القيامة، فعلى هذا: من يعرف أن الله –عز وجل–رقيب حافظ لأعماله سيجتهد أن يتقي خواطر السوء وأمراض القلوب.

مثال ذلك: دخلت مجلسًا؛ فوجدت فيه شخصًا، وفي ثانية خطر لك أنك أفضل منه – بسبب مال، أو نسب، أو مكانة، أو مظهر، أو أي سبب من دنيا الناس – ؛ فلو قابل هذا الصوت الذي تسمعه في القلب صوت آخر يقول: لا أحد يعلم من الأفضل عند الله، ومن يسبق الآخر في دخول الجنة، ثم تنازع الصوتان؛ فهذا يدل على وجود التقوى، (فطالما هناك نزاع إذًا هناك تقوى)، أما حين توافق على فحيح نفسك وهي تخبرك أنك أفضل منه، وتمضي ساكتًا لها، وتكمل يومك، وكأن ذرة الكبر التي دخلت قلبك لا تعنيك في شيء؛ فأنت هنا فقدت التقوى.

إذًا هما جهتان: العلم والإيمان، والهوى والشيطان. ما الذي نحتاجه لننجو؟

١ر واه مسلم

نحتاج أن نغلب جانب العلم والإيمان على جانب الهوى والشيطان. كيف نفعل ذلك؟ نتعلم، ونأتي بأسباب زيادة الإيمان.

يجب أن تعلم أن هذا الشخص دخل معك في هذا الموقف ابتلاء: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} ، وأن الذي تحرك في الداخل هذا هو انعقاد طاولة المفاوضات، وتصور كم مرة في اليوم تعقد هذه الجلسة؟ كم مرة نجاهد، وكم مرة تغلب تقوانا، أو نستسلم وكأن شيئًا لم يكن؟

مثال آخر: أنا الآن أتصفح؛ فنزلت لي نافذة منسدلة فيها صفحة سيئة، حوار لمدة ثوان: هل أرى أم لا أرى؟ والشيطان يقول لك: تعرَّف لتحذر الناس! وهكذا يبدأ الشيطان خطواته، خطوة واحدة ثم المهلكة.

كل هذا الحوار كم يأخذ مني؟ ثوانٍ، وعلى هذا قس الحياة كلها، تُبتلى، وتُبتلى، والله ينظر إلى قلبك،

ولا تتصور أن الشخص التقي لا تخطر له خاطرة الباطل؛ بل تخطر؛ ولكنه يجاهدها: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} و هذا الذي قيل فيه:{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ} هذا أعلى أنواع الجهاد، ثم يأتي الجهاد بالسيف، مما يعني أن الصعوبة هي في المجاهدة التي تدور، وتدور، وهذا معنى الحديث الذي ورد: ((تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُود عُود فَأَيُّ ما قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ ما قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ....)) . [٤]

١ [الفرقان: ٢٠]
٢ [العنكبوت: ٦٩]
٣ [التوبة: ٢٤]
رواه مسلم ٤

العرب لم يكن عندها سجون؛ فحين تريد حبس أحد أو حصره أسيرًا، كانت تحفر حفرة على طول الشخص، ثم تأتي بعيدان ترصها بجانب بعضها، حتى لو حاول الشخص التسلق يجد هذه العيدان مانعة له، فالفتن تعرض على الإنسان عودًا عودًا تحصره كشخصٍ محبوس في حفرة؛ فإن أنكرها القلب لا تثبت؛ فيستطيع في النهاية أن ينفذ، وفي المقابل أي قلب أشربها أصبح محبوسًا.

فتصور هذه الحالة في الليل والنهار مع الله، مع تذكر أن الله لا ينظر إلى صورنا، وهذا التذكر مهم؛ لأني حين أدخل المجلس وأسمع من ذاك الشخص –الذي رأيت نفسي أفضل منه– ترحيبًا؛ فسأرحب به، وأقول أهلًا وسهلًا، وربما أزيد فأعبر عن اشتياقي له، والله لا ينظر إلى هذا الكلام الذي نطبب به بعضنا بعضًا، ونغش به بعضنا بعضًا؛ إنما ينظر إلى قلوبنا!

ثانيًا: مراقبته سبحانه وتعالى لأمر في غاية الأهمية وهو: أعمال القلب في التوحيد، **وهذا هو أصل رفعة الناس وانخفاضهم**: هل هم بربهم متعلقون، و حول رضاه يطوفون، ولثنائه وحده يسعون، أم أن قلوبهم زاغت؛ فأصبحوا حول أنفسهم، أو حول الآخرين يطوفون، وإلى ثناء المخلوقين يسعون!!

هذا التوحيد هو الاختبار العظيم، الله عز وجل ينظر إلى قلبك ويختبره.

مثال ذلك: أنت تصلي الضحى الآن؛ فيبتليك الله بدخول شخص عليك: هل يتحرك قلبك يريد ثناءه؟ الرجل لا يعلم هل تطلب ثناءه أم لا؛ لكن الرقيب سبحانه ينظر إلى قلبك.

السؤال الآن:هل الإنسان الكامل لا يتحرك قلبه؟

لا تظن أن الكامل يولد كاملًا، ولا يلتفت قلبه إلى الرياء، لا، ليست هكذا القصة؛ بل هو يبتلى ويختبر، ويتحرك قلبه؛ فماذا يفعل؟

يجاهد هذه الحركة: يعقد طاولة المفاوضات في ثوان، يعطي زمام الحديث **لإيمانه** ليدلي بما لديه؛ فيسعفه الإيمان قائلًا: إن هذا الذي تلتفت إلى ثنائه لا يساوي شيئًا، قد تنتهي من صلاتك فتجده نائمًا لا يدري عنك، وحتى لو وجدته صاحيًا ينظر إليك؛ فماذا تساوي نظرة إعجابه، وكم تستغرق من الزمن والتفكير، وكم هي خسارتك لو استبدلتها بما عند الله من الثناء والقرب والأجر؟! إن الله لا ينام، ولا ينسى، ولا يغفل، وطلبك لثنائه وحده يساوي عنده الكثير، ويعطي عليه الكثير، فلا تظلم نفسك، لا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير!

هذا ما يقوله العاقل لنفسه أثناء جهاده مع الرياء، إلى أن يمن الله عليه؛ فيغلق عليه هذا الباب، ويصبح لا تضره هذه الفتنة!

انظر مرة أخرى للحديث: ((تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودا أيما قلب اشربها نكت فيه نكته سوداء و أيما قلب أنكرها نكت فيه نكته بيضاء)).

دعونا نفكر من نكت فيه نكتة بيضاء ماذا يحصل له؟ ينقلب ويصبح أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة إلى قيام الساعة، انظر لهذا الخبر العظيم: يعني أنت تجاهد في باب الرياء، و بعد ذلك يرحمك الله في هذا الباب، يقوي قلبك فيه؛ لكن لا تعتمد على نفسك، إنما الله هو من يغلقه عليك.

وكل الحياة تدور حول هذا المعنى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) لماذا؟ {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ، {يبلُوَكُم} أي: يختبركم فأنت من لحظة أن تُكلف دخلت الاختبار، إلى لحظة أن تموت وأنت في قاعة الاختبار؟ كيف تأتيك أوراق الاختبار؟ "تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها" والثاني "وأيُّ قلب أنكرها" يعني ماذا؟ يعني تأتيك أزمة[2] والله قادر على تفريجها، قادر على ألا يُدخِلك فيها، لكن حتى تعلو في مراتب الجنة لابد أن تدخل في اختبارات هنا، هذه سُنّة الله وانظر إلى أهل الدنيا مَن هذا الذي يترقى في المناصب؟ هو الذي بذل جهدًا في التعلم والتعليم، بل حتى عندما يصل ويصبح طبيبًا ماهرًا أو مهندسًا معروفًا، لابد أن يدخل اختبارات من أجل أن يترقى، فلا يوجد أحد في قانون أهل الدنيا يترقى إلا بنجاحه في الاختبار، كذلك سُنّة الله في الكون لا يترقى الناس في مراتب الجنة إلا على قدر ما ينجحون في الاختبارات.

١ الملك: ٢

٢ر واه مسلم

متى آخذ ورق الاختبار؟ بعدد أنفاسي، وهناك مَن يلاحظ أن هذا اختبار وهناك مَن لا يلاحظ، لكن نتكلم عن الاختبارات الكبيرة الواضحة التي يعلمها كل الناس، فمن أعظم الاختبارات التي نُختَبر بها جميعًا والله -عز وجل-يرقب قلوبنا فيها: أن نبتلى بضيق، ضيق في مال، في نفس، في أي كربة تمر بها، **المتقي يعلم أن هذا الضيق الذي هو فيه لا مخرج له إلا من باب الله، لا مخرج له إلا حينما يمد الله -عز وجل-له حبلا يخرُج منه، أما غير المتقي فيسير في الطريق ويتعلق ويلتفت قلبه لغير الله.**

مثال: شخص أصيب بمرض، فيقول وهو مطمئن: أصحابي كلهم أطباء، وأول ما أدخل المستشفى مباشرة سيدخلوني غرفة خاصة، وسأتعالج على حساب الحكومة، وسيعتنون بي، هذا من أول البلاء راسب! لماذا؟ لأن كل قلبه لغير الله، وربما عومل بالحلم، حِلم الله -عز وجل-فأعطاه ما أراد، وربما عومل باسم الرب فَرَبَّاه في هذا الموقف، فيذهب للمستشفى الذي فيه أصحابه ولا يجد أحدًا، أو يجد الجميع مشغول، هذا غائب، هذا عنده إجازة، هذا عنده ظرف... ماذا يشعر؟ يخرج من التجربة يقول: كنت أظن أن عندي أصحابًا، وما أكثر الأصحاب حين تَعُدُهُم...إلى آخر أمثال هذا الكلام! لم أتته هذه المشاعر؟ لأنه لم يعرف أنه في اختبار!.

يوصف لك الأنبياء وتُذكر لك قصصهم؛ من أجل أن تضعهم مَثلًا أعلى، ثم يقال لك: الأمثل فالأمثل، لأن الناس لن يكونوا كلهم مِثل الأنبياء، لكن أنت افهم على الأقل الصورة الكاملة، هذا إبراهيم -عليه السلام-إمام الموحدين، ماذا يعني إمام الموحدين؟ يعني إمام من اتقى بقلبه أن يلتفت لغير الله، لا في طلب معونة، ولا في طواف حول رضى، ولا في سعي حول ثناء، تأمل كيف كان اختباره: ابنه أو رضى الله، وكيف اختار رضى الله، طاف حول رضاه، عَرّض ابنه للذبح في مقابل أن يَرضى الله، فضع لك مثالًا أعلى وافهم أنك حتى تكون من أهل التوحيد؛ عليك أن تسير مثل سيرهم، بنفس الدرجة مِن التعلق بالله.

انظر إلى تفصيل ابتلائه عليه السلام، واحكم بنفسك كيف استحق أن يكون إمام الموحدين:

لنأخذ موقفًا واحدًا نرى من خلاله كيف يعامل الله عباده:

اجتمعوا على حرقه، رموا حطبهم وحجارتهم في واد، وأشعلوه نارًا.

ألم يكن الله قادرًا على منعهم؟ بلى، كان قادرًا، وإنما أمره أن يقول للشيء "كن فيكون"؛ لكن تركهم وما يفعلون، حتى إذا اشتدت حرارتها لدرجة لم يستطيعوا معها إلقاء إبراهيم عليه السلام مباشرة؛ فوضعوه في منجنيق استعدادًا لرميه من بعيد! ألم يكن الله قادرًا على منعهم؟ بلى!

انظر الآن إلى أي درجة قد يصل الاختبار في الالتفات: يأتيه جبريل – وهو معلوم المكانة عند الله – وإبراهيم عليه السلام في هذا كله لم يلتفت قلبه لغير الله، فيقول له: ألك حاجة؟ فيقول لجبريل الذي هو رسول الله: أما إليك فلا، وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل! أي هو حسبي وكافيني، انظر لهذا الاختبار العظيم في عدم التفات القلب إلى غير الله، ولهذا حق له أن يكون إمام الموحدين، وابتلاء الناس على قدر إيمانهم، الأمثل فالأمثل.

الله قادر على أن يجعل الحياة أيسر ما تكون؛ لكنه يضيّقها عليك ليرى هل يلتزم قلبك بابه، ويتمسك بحباله، ويتعلق به؛ أم هو مشتت، فيه شركاء متشاكسون؟

يبتليك وهو قادر أن يُنجيك، يُضيق عليك وهو قادر أن يوسع لك، لم كل هذا؟ لأن اختبارنا الصعب الذي نعيشه هو: (اختبار التوحيد)، وهذا الاختبار ليس اختبارًا ورقيًا تكتبه في دروس التوحيد؛ بل هو اختبار التوحيد في قلبك آناء الليل وأطراف النهار: لك واحد فهل ستلتفت له أم ستلتفت لغيره؟

وكلما زاد الإيمان زاد هذا الاختبار، وارتفعت الدرجات، أما إذا ضعف الإيمان؛ فإن الله يقلل الاختبار، ويحفظ لنا إيماننا، ويعاملنا باسمه الحليم؛ لكن بقلة الاختبار تنزل الدرجات.

ولهذا ضعيف الإيمان يبتلى ابتلاء على قدره، ومع ذلك يجده صعبًا عليه، في حين أن قوي الإيمان يسهل عليه الاختبار ولو كان أصعب.

مثال: شخص ضعيف الإيمان تكسر زجاجة في بيته؛ فيغضب ويصرخ، ولا يستطيع أن يرى أنه قدر الله وما شاء فعل! في حين ترى قوي الإيمان يفقد ولده وهو صابر، لا يخرج من فمه ما يدل على تسخطه! فما الذي أجزع الأول أمام الأمر السهل، وصبر الثاني أمام الأمر الجلل؟! إنه فارق الإيمان!

ولا تستغرب هذا، فإنه تمامًا كقانون الدنيا، فنحن نقول دائمًا: من يدرس جيدًا تسهل عليه حتى الأسئلة الصعبة، ومن لم يدرس تصعب عليه حتى الأسئلة السهلة، وهذه تمامًا مشكلة ضعف الإيمان!

لذلك: لا تقل: أنا أخاف أن أزداد إيمانًا فيزداد بلائي! هذا تفكير من لم يستوعب الأمر كما هو عليه: صحيح أنه سيزيد عليك البلاء؛ لكن قوة الإيمان تجعل البلاء يسيرًا، وضعف الإيمان يجعل البلاء صعبًا، وهذا مثل أن ترمي بكرة ثقيلة من سقف عال؛ فإن قوة الإيمان تجعلك بمثابة من استعد للقياها بمخدة هوائية، أو إسفنجية، وضعف الإيمان يجعلك بمثابة من تلقاها على أرض جرداء؛ فلا بد أن تكسرها، أو تترك فيها جروحًا عميقة على الأقل، ستكون الكرة الملقاة عليك أشد وطأً حتى لو كانت أخف وزنًا! هذا بالإضافة إلى أن قوي الإيمان في الدرجات العلا من الجنة، وضعيفه في الدرجات الدنى، فلا تكن من أولئك الذين تدنو هممهم عند أمور الآخرة، ويرضون بمجرد دخول الجنة؛ فإن في هذا من الحسرة يوم القيامة ما فيه!

هل تظن أن فوارق الدرجات في الجنة كفوارق الدرجات في الدنيا؟

إن في الجنة غرفًا ينظر لها أهل الجنة كما ننظر إلى الكوكب الدري الغابر في الأفق، كما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ))[١] .

[١] متفق عليه.

فوراء هذا الزهد بدرجات الجنة حسرة عظيمة! أوَ يتحسر أهل الجنة؟! نعم يتحسرون على يوم لم يذكروا الله فيه، على ساعة لم يذكروا الله فيها، لأنهم يرون المنازل العليا.

الله –عز وجل–يعاملنا برحمته، يرحم ضعفنا؛ فيبتلينا على قدر إيماننا، لكن الصورة الكاملة ألا تلتفت عن الله، أليس الله قادرًا على أن يرد عني كل الناس الذين كادوا لي؟ الجواب: بلى. أليس الله قادرًا على أن يُفَرج همي ويخرجني؟ الجواب: بلى. إذًا ما بالها تضيق؟ **تضيق من أجل أن يقع الاختبار**: **ستتعلق بمن؟**

مثال آخر: تجلس الآن في المجلس وتقول:(ليس لنا إلا الله، ربنا الذي سيُساعدنا)، وأنت في قلبك تفحص: على مَن ستتصل بعد خروجك من هنا، ومن سيكون الواسطة!

تتكلم بلسانك عن التوحيد، ومن داخل القلب تبحث عن أحد غيره!

ستكلمني عن الأسباب؟

الأسباب يملكها رب الأسباب: اقرأ جيدًا قول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ *أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1]

الأسباب بنفسها اختبار لك، تتيسر الأسباب ليرى الله هل تلتفت لها أم تتمسك بحبله، أرأيت إلى جبريل عليه السلام؟ أليس هو مرسل من عند الله؟ لكن مع ذلك ما كان موقف إبراهيم عليه السلام معه؟ حفظ قلبه من أن يجتمع عليه، حفظ قلبه من أن يأتي في لحظة الاختبار العالية ويلتفت إليه!

سيروا جيدًا، لا تجعلوا الأسباب تعارض اعتقاداتكم.

يبتليك الله بكل شيء حتى لا يكون في قلبك غيره، يبتليك من أجل أن يراك محسن الظن به، غير ملتفت إلى غيره.

---

١ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]

والأسباب ماذا أفعل بها؟ (اصبر) أسس أولًا اعتقاد التعلق بالله وقوّه، وأحسن الظن به، وكرر في قلبك أنه لا ينجيك إلا الله، واكفر بكل ما سواه، ثم ستجد تفسيرًا للأسباب، ستفهم ما هي الأسباب. ولكي تتضح بلاءات الأسباب، انظر معي إلى هذا المثال:

لي معاملة في مكان، فأنا طوال الليل أدعو الله: يا رب يسرها، لا ييسرها غيرك، وأخرج وأنا كلي ثقة به، وأقول في أذكار الصباح "أصلح لي شأني كله و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين" وأنا متيقن –كما في رواية عند الإمام أحمد – أنه إن وكلني إلى نفسي فقد وكلني إلى ضعف و ذنب وعورة وخطيئة، وأنا لا أثق إلا في رحمته، ثم أول ما أصل إلى الدائرة ألقى شخصًا أعرفه!

ما الموقف الآن؟

الآن أتيت للبلاء وهو أمامي، والله ينظر إلي هل أركن إليه؟! صحيح أنني أقول: الحمد لله هو سبب رزقني الله إياه؛ لكن إن كان في داخلي مشاعر الطمأنينة به، وأنه بما أني وجدته إذًا سيقضى الأمر؛ فقد قضي على نجاحي في الاختبار! لقد رسبت!

إذًا كيف أنجح؟ النجاح أن تقول: وضعك ربي أمامي ابتلاءً، سأعطيك أوراقي وأنا أعلم أنك لا تنفع ولا تضر، إذا ساق الله لي رزقًا؛ فهو الذي ساقه على يديك، وإن منع عني رزقًا؛ فلا حول ولا قوة لك في ذلك، ويبقى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام عيني: ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ))[1]

---

١ شعب الإيمان للبيهقي، مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ ضَعِيفٌ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ قَوْلِهِ مَرَّةً، وَمَرْفُوعًا أُخْرَى أَمَّا الْمَرْفُوعُ فَمَا "أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ هَانِئٍ، حدثنا جَعْفَرُ بْنُ شُعَيْبٍ الشَّاشِيُّ، حدثنا أَبُو حُمَةَ، حدثنا أَبُو قُرَّةَ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "لَا تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسَخَطِ اللهِ، وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللهِ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَسُوقُهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْكَ كُرْهُ كَارِهٍ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقِسْطِهِ، وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ، وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، جَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي السَّخَطِ وَالشَّكِّ".

ونحن نحفظ الحديث الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس و عمره قريب من عشر سنين: ((احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)) وبقية الناس؟ ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ))[1] انظر هذه هي مشاعر الإيمان، لذلك في أول الحديث (أن من ضعف اليقين) بسبب ضعف اليقين عظمت الأسباب حتى أصبحت إلهًا يعبد من دون الله – بدل أن تكون اختبارًا–، وأصبح الصغير قبل الكبير يقول أين الأسباب؟!

اعرف رب الأسباب أولًا. ألم يقل الله لك تفكر في ثلاثة أشياء، ولنأخذ واحدة منها: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ *أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[2] ما رأيكم؟ وما جوابكم؟ لما نحرثه هل نحن نزرعه أم الله يُخرجه؟

تعال لكل من يدرس النبات واسأله: ما هي عوامل الزراعة؟

البذرة، الأرض الخصبة، الماء، الخ

ضع أمام كل واحدة منها سؤالا: من رزقك البذرة؟ من أين أتت أول بذرة؟

من عند الله، ثم بذرة بعد بذرة كلها من عند الله.

الأرض الخصبة من يصلحها للإنبات؟ الله! الماء من ينزله من السماء؟ الله! الشمس من يأذن لها أن تشرق، وتجود بمنافعها للناس؟ الله! لا تشرق عليك حتى تسجد عند عرشه تستأذنه للشروق؛ فيأذن، ولولا أنه يأذن ما أشرقت، ولولا أنه يأذن ما أشرق شيء في حياتك، ولا أفكارك، ولا قلبك!

---

١ سنن الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٢ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]

ثم بعد ذلك يا مزارع: تعال واحرث الأرض! من أين لك الحول و القوة لحرثها؟ لا حول ولا قوة لك إلا بالله.

حَرَثَ الأرض بحول من الله وبقوة من الله، مع أنه لم يطلب الحول والقوة؛ لكن ألا تعلم أن الله منّان يعطي النوال قبل السؤال؟ قبل أن تسأله يعطيك!

ثم بعد أن تدفن هذه البذرة؛ من من البشر يتدخل ليفلقها؟! من الذي يفلق الحب والنوى؟

الله فالق الحب والنوى! ثم من مخرج الثمرات؟ الله هو وحده مخرج الثمرات!

الآن أجب على سؤال الله: أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟! انتهى الأمر!

تفكر في كل شيء حولك، واعلم أنك مبتلى (مختبر) به، لماذا يقال لك: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ثم هو سبحانه و تعالى في هذه البلاءات ينظر إلى قلبك، و من هنا أتى اسم الرقيب، وعلاقته بالتقوى، فالله يراك عندما يضع أحدًا(سببًا في الوسط) في حياتك وأنت تسير إلى الله متعلقًا به، ينظر إليك و هو الرقيب هل تلتفت لهذا السبب أم يبقى قلبك معلقًا بالله؟!

فهمنا بهذا أننا نختبر في توحيدنا وأن الله يراقب قلوبنا!

سأُعيد هذه النقطة لأنها شائكة وموضوع الأسباب دائما يُنازعنا ولابد من التدقيق في بيانها مرة أخرى:

نسأل أنفسنا سؤالًا بسيطًا: ما معنى اسم الله الأول؟

---

١ [الملك: ٢]

الذي ليس قبله شيء.

إذًا من الأول: الله أم الأسباب؟ الله هو الذي يسبب الأسباب ويسخرها.

الآن نأتي لمعركة تسخير الأسباب (هذه معركة بنفسها) ما هي؟

نصور الأمر مع شخص ممن هم كمّل في إيمانهم: بتّ ليلتك تتقلب داعيًا سائلًا متعلقًا بالله، وفي الصباح وجدت سببًا قائمًا أمامك في مكان معاملتك، ماذا تفعل هنا؟

أول ما يأتيك هذا السبب، اعلم أن الله ينظر إلى قلبك و يريد منك أمرين:

- أن تعلم أن الله هو الذي سخره لك!
- أن لا يركن قلبك ويتكل على أن وجود هذا الشخص سيحقق لك المراد!

هل يعني عدم الركون إليه ألا أستعمله؟

هناك فرق بين كلمة (أستعمله) وكلمة (أركن إليه)، أنا أتكلم فقط عن عمل القلب.

لا تركن إليه بقلبك، أعطه أوراقك ولسانك، ولا تعطه قلبك، قل: هذه أوراقي إذا تيسرت كان بها، وإلا؛ فالأمر أمر الله، وقلبك كافرٌ بهذا الشخص، فليس هناك ذرة تعلق بأنه سيقضى الأمر على يديه؛ فلا يقضى الأمر إلا على يد الله، وإن شاء قضاه على يد فلان، وإن شاء قضاه بلا يد أحد من الخلق. وهنا تكون قد جمعت بين الشعورين السابقين.

أما الأوراق والمفاهمات حول المسألة فله، وأما القلب فلخالقه الذي خلقه ليكون حرًا من عبودية غيره!

الله عز وجل ينظر إلى قلبك وقت ما تطلب من ذاك الشخص: هل تركن إليه؛ أم كل اعتمادك على الله: يا رب أنت الذي تسخر الأمور كما جعلته في طريقي؛ يَسِّر الأمر، واقضِه بأي صورة كانت، به أو بغيره. (اعلم أن الله هو الذي يُسبب الأسباب، وأن الله هو الذي ينفع بالأسباب، وأن الله هو الذي يعطي نتيجة السبب).

هناك أسباب كثيرة حولنا، هل انتفعنا بها كلها؟ لا، لأن الذي رزقنا السبب منعنا الانتفاع به.

كم مرة قلت: لو أتاني جهاز لحفظ القرآن؛ سأحفظ بكل سهولة، ثم يأتي الجهاز وتجلس سنوات دون أن تحفظ؟

تقول لو دخلت مدرسة تحفيظ سيصلح حالي، ثم تدخل مدرسة تحفيظ ولا يصْلُحُ حالك، وتخرج متذمرًا: لا مدارس التحفيظ تُصْلِح، ولا مجالس العلم تُصلِح، ولا أي شيء يُصْلِح!

نقول له:ليس هكذا الأمر، الأمر أنك دخلت مُتَّكِلاً عليها؛ فَخُذِلْتَ من جهتها.

ممنوع أن تلتفت لغيره في كل شيء: في أمر الدين وفي أمر الدنيا.

انظر إلى إمام الموحدين: حتى جبريل عندما يقول له: ألك حاجة؟ بم أجابه؟ كأنه يقول لجبريل: هل تقصد أن حاجتي إليك؟ لا، إليك ليس لي حاجة، كل حاجتي إلى الله!

ثم اسمع ما معنى: (حسبي الله ونعم الوكيل) اسمع هذه، و افهمها جيدًا، و اسمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول لك ثلاثًا فلا تنسها:

كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: ((حَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللهِ مَرْمَى)) حسبي الله وكفى يعني: هو سبحانه و تعالى حسبي، حسيبي، وهو يكفيني سبحانه وتعالى.

(سمع الله لمن دعا) يعني: لا يمكن تدعوه ولا يسمعك، لا يمكن أن تقول في حياتك دعوة ولا يجيبك؛ فهل بعد ذلك ستبحث عن غير الله يعطيك؟ ثم أتظن أن الله يمنعك شيئًا وتجده عند غيره؟

(ليس وراء الله مرمى) الأمر أمره كله سبحانه وتعالى، ولهذا كم من صُلاّح أخذوا يرتادون أماكن الفسق اعتمادًا على أنهم بسبب صلاحهم لن يتأثروا؛ فخذلهم الله، (يرتادون: قد يكون على الشاشات، وليس شرطًا يرتادون بمعنى يذهبون) وكم من أهل دين ومحافظة اعتمدوا على أنفسهم في تربية أولادهم؛ فخرج الأولاد فاسقين، لماذا؟ لأن الله يَرْقُب قلبك هل تعتمد على نفسك وعلى الوسائل، أم تعتمد عليه؟ (وهذه عملية صعبة جدًا تحتاج ملاحظة دائمة).

ثالثًا– مراقبة الله لقلبك وقت الأزمات هل تحسن الظن به؟ أم يأتيك الشك؟ وهذا أمر مهم جدًا، يستغله الشيطان أحسن استغلال؛ فيأتي العبد في وقت الاضطرار، ويثير عليه سوء الظن بالله!

مثال ذلك: تتعلق بالله وتسأله وتدعوه بقوة، والعدو يقترب، والهلاك يقترب؛ فلا تظن أنه يخذلك، ولا تظن أن الـمُلك ليس مُلكه، ولا تظن أنه غير قادر على أن يسلّمك، هو –سبحانه وتعالى–(سلام)، صفاته كلها سالمة من النقص والعيب، لم يتأخر عطاؤه أبدًا؛ بل سيأتيك في الوقت المناسب الذي يُجمع لك فيه الخَيرين، خير الدنيا وخير الآخرة، أما خير الدنيا؛ فستُفرج، ستكون نارك بردًا وسلامًا حين توشك على السقوط فيها، وأما خير الآخرة؛ فستربح أن تكون من الموحدين، تكون عبدًا نظر الله إلى قلبه فرآه متعلقًا به، لم يلتفت إلى غيره، وإن حصلت من قلبه التفاتة جاهده، ورده كي لا يلتفت.

أنت تقرأ أن الله –عز وجل–حين وصف نفسه محاجّةً لكفار قريش قال لهم: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)[1] يا من كفرتم! يا من أشركتم! كم مرة اضطررتم؛ فدعوتموه مع شرككم؛ فنجاكم؟! فأين أنت أيها المؤمن عن هذا المعنى العظيم: يجيب المضطر حتى لو كان مُشركا! فما بالك تظن ظن السوء فيه؟!

كيف تتصور أنك في ضائقة والله –عز وجل– يتركك لأنك مذنب؟! كيف تظن في ربك هذا الظن! أنت عبده وهو ربك، لو كنت في ضائقة واضطررت إليه سَيُفَرّج عنك، لو كان الكافر المشرك في ضائقة واضطر إليه سَيُنجيه، فما بالك بعبده المؤمن به؟! إن هو إلا وحي الشيطان أن تقول حين تأتيك الاضطرارات: أنا أستحي أن أطلب من ربي وأنا مذنب؟!

نقول لك: لو لم تطلب من ربك ستطلب ممن؟ ستذهب إلى مَن؟ **حسبي الله وكفى**، **سمع الله لمن دعا**، **ليس وراء الله مرمى**، مَن تظن أنه يعطيك!

أرأيتم إلى الشيطان كيف يجعلنا نسيء الظن في ربنا! يأتينا بلاء – وهذا البلاء أصلًا بنفسه كفارة لذنوبٍ أصبناها– ماذا يجب أن تفعل في البلاء؟

ألست تقول: عندي ذنوب؟ إذن اجمع بين التوبة له –سبحانه وتعالى– والاضطرار واللجوء إليه، وامنع قلبك مِن الالتفات لغيره؛ لأنك حتى لو كنت مذنبا فليس لك إلا هو –سبحانه وتعالى–يُخرِجك من اضطرارك، فلا تسئ الظن به، لا تظن أنه يسمع نداءك، و يرى اضطرارك، ولا ينجيك.

تقول: إذًا ما بالها تضيق وتطول؟ هذا كله اختبار، ونظر منه سبحانه لتوحيدك له في التفاتات قلبك، ورفعة لدرجاتك، أما رأيت كم دام ابتلاء يعقوب –عليه السلام–كما يقول المفسرون: استمر حال فقده ليوسف فوق (٣٥) عامًا، وفي هذا الزمن كله يقول: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) ويقول: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[2] فانظر كيف أن العلم عن الله يزيد

١ النمل ٦٢

٢ يوسف: ٨٦

العبد حفظا لقلبه، ويزيده حسن ظن بربه، لاحظ:كل هذه الأعوام ألا تُسبب اليأس في القلب؟ نصف هذه المدة؛ بل ربما عُشرها يسبب اليأس من عودة يوسف–عليه السلام–لكن كلما تذكر الرؤيا عَلِم أن ربه لا يمكن أن يخذله، وأن هذه الرؤيا ستتحقق يقينًا، فبقي محسن الظن بربه.

تأمل كيف يطيلُ إحسان الظن شكوى العبد بين يدي الرب، فكل هذه السنين ما ذُكِر عن يعقوب ولا عن يوسف–عليهما السلام–إلا هذه القصة؛ لتعلم أن منزلتهم العليا كانت في هذه البلوى، فانظر كيف رفعت هذه البلوى منازلهم، وكيف حفظ الرقيب قلوبهم!

إذًا الرب–سبحانه وتعالى–ينظر لقلبك هل تتقي أمراض قلبك وتجاهدها، وهل تتقي أن تلتفت لغيره، وهل تتقي سوء الظن به، أم أن إساءة الظن تتخطفك!

مَن الذي ينجح في كل هذا؟ من يعرف الله!

–كل مَن عرف الله ينظر الله إلى قلبه فيجده معظمًا له مجاهدًا فيه.

–كل مَن عرف الله لم يلتفت لغيره.

–كل من عرف الله أحسن الظن به.

هذا معنى اسم الله الرقيب، ومن هنا تظهر العلاقة الوطيدة بين اسم الله الرقيب والتقوى، فالتقوى فعل قلب يشعر بمراقبة الله؛ بل هي قمة المجاهدة، هي نتيجة للمجاهدة، التقوى وصف لحياة عبد يحبه الله.

ماذا تلاحظ من صفات الرب لتحقق التقوى؟ تلاحظ أن الله عليك رقيب، ناظر إلى قلبك، يرقب فيك تلك المجاهدة، ثم الرقيب يحفظ؛ فإذا جاهدت حق المجاهدة يهديك: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} بصيغة التأكيد. [1]

لا أحد حولك يشعر بتقواك، ربما اتقيت فأساؤوا الظن بك، وربما اتقيت فاتُّهمت بشيء من التشدد أو الضعف، أونقص التفكير، قد تعتصر بسبب أفكار ومشاعر في داخلك، لا يعلمها من البشر أحد؛ فلن تأتي منك التقوى هنا إلا وأنت تلاحظ أن الله يراقبك.

إذًا: العلاقة بين الأمر مرتين بالتقوى وبين ختم الآية بـ {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} أن التقوى فعل مبدؤه القلب وناتجه على الجوارح، والرقيب سبحانه لما أمرك بالتقوى نَبّهَك أنه ليس المطلوب ظاهر التقوى -أي أن تتكلم بها أو أن تصطنع أنك تقي- إنما يقال لك: اتقِ، والله -عز وجل- ينظر إلى قلبك؛ فلأجل ذلك كان اسم الرقيب حاملًا على التقوى.

فهمنا العلاقة بين التقوى واسم الرقيب.

سأنتقل الآن إلى أمثلة تبين العلاقة بين اسم الرب واسم الرقيب: { يأيها الناس اتقوا ربكم}:

١- تربيته لك حين تستسلم لظنون السوء بإخوانك:

كم من المرات جلست في مجلس، ودخل عليك ضيف بدون موعد، فأخذت ترحب به بلسانك، وقلبك يقول: هل هذا وقته؟ وتخمن أنه ما أتى إلا لكذا وكذا – من أسباب السوء التي عندك- **ثم ينطقه الله بكلام كأنه يدافع عن نفسه، كأنه سَمِعَ ما تقول عنه!** لماذا؟ لأن ربنا هو الرقيب الناظر إلى قلبك الذي يعلم ما تقول، من أجل أن يربيك و يؤدبك يجعله ينطق بهذا الكلام حتى تستحي من نفسك وتصرفك وتعلم أن الله سبحانه وتعالى مطلع على ما دار في قلبك، وكيف فقدت فجأة أن عليك رقيبًا؛ فتركت لنفسك العنان، لم تلجمها، ولم تقل: (من كان

[1]

يؤمن بالله و اليوم الأخر فليكرم ضيفه) ، لم تقل: هذا رزق أتاني مِن الله، أُكرمه و لو بالقليل، ولو بالوقت القصير، والله يرفعني عنده درجات، سَرَحَ قلبك بعيدًا، و ظننت فيه ظنونًا؛ فالرب يربيك، ويرد عليك ظنونك، ويؤدبك، وينطقه بكلام يجعلك تستحي، ليس منه؛ فهو لا يعلم ما دار في قلبك؛ وإنما تستحي من الرقيب الذي يراقب كيف تعامل عباده، مع أنك تطلب منه الكثير والكثير!

أتظن أنك تخادع ربك؟ أتظن ذلك؟ الله سبحانه وتعالى الرقيب على كل قلب، الرقيب على كل أحد.

٢–تربيته لك حين يقع في قلبك الاستغناء عنه:

إذا علمت عن الله وجدت قلبك مضطرًا إليه، وممنوعًا من الالتفات لغيره، لكن القلب الضعيف الذي لا يعلم عن الله، كلما أتاه أمر يلتفت لغيره، وكلما رزقه الله –عز وجل–وقع منه **الاستغناء عن الله!** ما علاقة الاستغناء باسم الرب وما علاقته بالتقوى؟

فلنتذكر سورة الليل: هذه السورة كلها على المقابلة: أقسم بالليل، والنهار يقابله، وبالذَكر، والأنثى تقابله، (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) : افترقوا في سعيهم يعني: سعي[1] مثل الليل، وسعي مثل النهار، انقسموا إلى قسمين: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى*وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) ماذا ستكون النتيجة؟ (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) و الثاني: (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى*وكذب بالحسنى)، كذّب يقابل صدّق، أعطى يقابل بخل، إذًا مؤكد أن استغنى يقابل: اتقى.

هذا المستغني استغنى عن ماذا؟ ما الذي وقع في قلبه؟ الجواب: استغنى عن الله. ما الاستغناء عن الله؟ ما معناه؟ وكيف يقابل التقوى؟

١

٢ الليل: ٤-٨

النفس تأتيها مواقف كثيرة تستغني عن الله بعطاء الله! أعطاني الله مالًا، صحة، جاهًا؛ فبدل أن أطلب منه أن ينزل البركات في المال والولد والجاه والصحة، وأن ينفعني بهذه النعم في دنياي وأخراي، يقع في قلبي استغناء عن الله وعن الطلب منه، وعن أن يُنزل علي البركات، وأحيل كل الاعتماد على ما عندي،

مثال ذلك: يقول لك أولادك: الدنيا فيها اضطرابات سياسية، وأحوال مقلقة... فلو حصل كذا وكذا ماذا سنفعل؟فتجيب: لا تخف يا ولدي عندي أرصدة، وتأخذ في تعداد ما عندك من الأرصدة في الخارج، ومثل هذه الأمثلة كثير!

أرأيتم هذه المشاعر!! هذا المال كله من أعطاك إياه؟ الله – عز وجل – انتبه أن لا يجدك الله متقيًا في هذا الموقف. التقوى هنا ألا يحصل بسبب عطاء الله استغناء عن الله، اتق أن يركن قلبك لعطاء الله، هي أمور مركب بعضها على بعض، بمعنى: أنه في الأصل يشعر أن المال مُلك له، وأنه هو الذي جمعه، وأنه حصل على كل شيء بجهده، فصارت سلسلة طويلة من الاستغناء عن الله!!

ومثل هذا الطالب الذي يدخل الاختبار يقول: أنا دارس وحافظ ومن الأصل أنا ذكي، ويدخل الاختبار، وهنا قد يعامله الله بحلمه؛ فيحل الأسئلة، وقد يعامله باسمه الرب؛ فيربيه ليعرف أنه لا يغني عنه من الله شيئًا.

إذًا ما هي المشكلة: واحد يتقي أن يستغني عن الله بما أعطاه الله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ والثاني ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾

المتقي هو الذي دفع في قلبه الاتكال على ما أعطاه الله، وبقي قلبه معلقًا بالله، يطلب منه أن ينفعه بما أعطاه حتى لو كان كأس ماء، فأنت تقول: بسم الله؛ لأنك تعتقد أن اسمه العظيم حين يقال على شيء تنزل البركات، تأمّل! كأس ماء يمكن أن تستغني به عن الله، فتشرب دون أن تذكر اسمه عليه! تستغني! لكن التقي يعلم أن هذا الماء سينفعه حق النفع لو اتقى أن يستغني عن الله.

ومثله: إن أردت القيام بأمر لا أعرفه من قبل، سواء في عملي أو في بيتي، أو غير ذلك، أبقى طوال الوقت أقول: بسم الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رب أعني، علمني....فأنا هنا أتقي الاستغناء عن الله: أدعو، وأطلب الفتح؛ ثم أول ما يمكنني الله وأصبح ذا خبرة أستغني!

إذا وقع مثل هذا كيف يعاملك الله؟ وأنت تسير مطمئنًا لنجاح الأمر بسبب خبرتك فيه، تقول: قد مارست هذا كثيرًا، لن يقف هذا الأمر بين يدي أكثر من دقائق....الخ، في وسط هذا الالتهاء يربيك الله، فالذي كنت تستطيع ممارسته بكل يسر وسهولة يُغلَق عليك ولا تستطيعه، لماذا؟ حتى تتذكر أن الذي مكنك هو الله، فيقال لك: اتقِ من هُوَ لك رب، واعلم أن من رحمته بك أنه حين يراك لم تتق الاستغناء عنه يردك إلى ضعفك وفقرك الأصيل، كي لا تبتعد كثيرًا!

. مثال: شخص صحيح يعتمد على قوته في تحصيل مصالحه، ودندنته اليومية: مادمت أنا فسأفعل!

هذا وقع عنده حالة من الاستغناء عن الله. انظر كيف يربيه الله لو كان يعي: أرأيت إلى ما يسمونه ب(الفيروسات)؟ هذه المخلوقات التي لا ترى بالعين المجردة؛ ما هو إلا أن يدخل أحدها في أنفه، أو في عينه، أو في فمه، أو في أذنه؛ حتى يصبح ذاك القوي الطويل العريض طريح الفراش! لأن ربه يُربيه، يؤدبه، يقول: أنت اعتمدت على طاقتك وقوتك، وطول النهار تتكلم وتقول: أنا أستطيع أن أفعل، وأفعل في اليوم الواحد كذا وكذا؟!

ثم حين يمرض بدل أن يحسن تفسير الأمر يأخذ بالبحث عمن حسده! يقول: أنا تكلمت بهذا الكلام أمام مَن؟ مَن الذي حسدني؟ ما عندنا تفسير للأحوال إلا هذا، لا تسأل إلى أي درجة وقع الاستغناء عن الله، إلى أي درجة وقع الاعتماد على غيره، طول الوقت نقول لأولادنا: لا تخف يا ولدي ما دمت معك، جاهلين أننا بهذا نعلمهم كيف يعتمد الفقير على من هو أفقر منه، وكلنا فقراء، ألأن الله قواك تستغني بقوتك عنه؟!

لو استغنيت يربيك، وليس شرطًا أن تكون التربية مباشرة، بل على حسب الإيمان؛ فضعيف الإيمان يعامله الله باسمه الحليم، لا يأخذ منه مرة واحدة؛ إنما يحلم عليه –سبحانه وتعالى– فيبقي له ما يريد، وبعض الناس لقوة إيمانهم يؤدبهم ويربيهم مباشرة، وقد يذهب عنهم في لحظة كل ما اعتمدوا عليه، مثال ذلك:

شخص ذهب يعطي درسًا، وهو يقول: ما دام جهازي معي سأُنجز وأُبلي بلاءً حسناً في الدرس؛ فما هو إلا أن يبدأ حتى يتوقف الجهاز عن العمل! لم يكن فيه أي علة، لكن يُربيه الله. هل كل الناس يحصل لهم مثل هذا؟ الجواب: لا، الله –عز وجل–يُربي عباده على حسب درجة إيمانهم، فكأنه يُقال: استح من ربك الذي رباك، أعطاك، وأوجدك، وأعدك، وأمدك، واعلم أنه يرقب قلبك: أتستحي منه أم تستغني عنه؟ واعلم يقينًا أنه –سبحانه وتعالى– يردك إليه رحمة منه بك؛ فلا تقل إن حصلت لك هذه التربية: أنا ليس لي حظ بالفرح،كلما أردت الفرح بشيء لا يتم! لا تقل مثل هذا، إنما أذهبه عنك ليحميك من الدخول **فيمن استغنى!**

عدل طريقة تفكيرك، وقوّم اعوجاجها، وقل: إن الله لم يأخذ مني ما أخذ إلا لأجل ألا أغتر بأن شيئًا غيره يغنيني عنه!

يربيك من أجل ألا يأخذك على حين غرة حين تأتيك لحظة الموت؛ فترى أن لا شيء من هذا الذي ظننت أنه يغنيك سيغنيك، لا طبك إن كنت طبيبًا، ولا علاقتك بالأطباء إن كان لك علاقة بالأطباء، ولا مالك إن كنت صاحب مال، ولا أولادك إن كنت صاحب أولاد، ولا نقاط الرفاهية التي يمكن أن ترتادها حتى تُرَوِّح عن نفسك، سيضيق صدرك وستخرج روحك ولا شيء سينفعك، وما دامت هذه الحقيقة؛ أفليس من رحمة الرحمن، الرب الرحيم بالخلق أن يؤدبهم طول الحياة، ويبين لهم أنه لا شيء سيغنيهم عن ربهم، الجواب: بلى؛ حتى لا يستندوا على شيء سيهوي بهم في الحقيقة، **حتى يتيقنوا أن كل هؤلاء ليسوا لهم صمدًا، ليسوا لهم ركنًا شديدًا**، حتى يتذكروا دومًا أن ركنهم الشديد هو واحد فقط:

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ} فيستحوا أن ينظر لقلوبهم فيراها مستغنية عنه بعطاياه!!

هذا عيب! وإننا لنستحي من أقل من هذا في معاملتنا للخلق؛ فكيف لا نستحي من هذا التعامل مع الله؟!

إذًا: من رحمته –سبحانه وتعالى– بخلقه أنه إذا رأى قلبًا مؤمنًا صادقًا وقع فيه **الاستغناء** عنه بشيء من الأشياء، عامله باسمه الرب، طبعًا هذا الاسم له معان، من بينها أنه المصلح الذي يُربي عباده، فالعبد الذي ربّاه ربه بالإيمان والتقوى يسمى ربانيًا، ما معنى أن يربيك الله؟ يُجري عليك من أقداره ما يُهذّب قلبك ويبين لك الحق.

سأصف لكم أمرين يوضحان تمامًا إلى أي درجة لا يمكننا الاستغناء عن الله: أنتم تعرفون أن قراءة المعوذات والنفث بها سنة عن النبي –صلى الله عليه وسلم–عند النوم، وأنتم تعرفون أيضا في الجهة المقابلة أن هناك النفاثات في العقد لأجل السحر، **يعني هنا يوجد نفث وهنا يوجد نفث، فما الفرق بين هذا وهذا؟**

أما النفث عند النوم بالمعوذات فهي معادلة تتكون من أربع عناصر أو ثلاث عناصر والأخير نتيجة، نفسٌ طيبة تؤمن بالله، تقول كلامًا طيبًا: **(قل هو الله أحد) (قل أعوذ برب الفلق) (قل أعوذ برب الناس)** تذكر أسماء الله عز وجل وصفاته، فيتحول نَفَسها إلى نَفس طيب؛ فتَنفُث طيباً:

فالنفس الطيبة + الكلام الطيب = نَفَسًا طيبًا.

انظر الجهة الثانية: النفاثات في العقد، ما هي؟

عكس هذه المسألة: نفسٌ خبيثة كافرة؛(لأنهم لا يصبحون سحرة حتى يتعدوا على الله، ويفعلوا الجرائم العظام في عدم تعظيم الله)!

نفس خبيثة + كلام خبيث كله شرك ودعاء وطلب من غير الله = نَفَسًا خبيثًا.

تخيل: النَفَس يَتَكَيف مع النَفس والكلام؛ فيخرج نَفثًا خبيثًا، فيعقدونه، فتأتي النفاثات في العقد، هذا كله لماذا نتكلم عنه؟ حتى تتصور إلى أي درجة أنت لا تستغني عن الله، إلى أي درجة تطبيك أسماء الله، وصفاته، والتعلق به، تطَيب نفسك، تجعل نَفثكَ طَيّبًا، تصور لما تقرأ الفاتحة وتضع يدك في مكان الألم وتقرأ وتنفث: طيّبت نفسك بهذا الكلام الشريف.

انظر إلى أي درجة فقرك إلى الله، شربة الماء تُطَيّب باسمه، وهذه الذبيحة لو لم يذكر اسم الله عليها لأصبح دمها خبيثا! وحين يذكر اسم الله عليها تصبح بدمها طيبة! كم أنت في فقر إليه -سبحانه وتعالى- ومع الأسف عطايا الله للخلق سببت لهم ضَعف التعلق به وضَعف الحاجة إليه، فاحذر أن تقتدي بهم، اتقِ أن تستغني عنه؛ فهو عليك رقيب.

ولهذا لو تأملتم معنى **"لا حول ولا قوة إلا بالله"** يعني: أنا ليس لي حول ولا قوة إلا بك يا ربي، هي كنز من كنوز الجنة، وكلما أكثرت؛ الله أكثر، وَرَدَ في السنة قولها حين يقول المؤذن: حي على الصلاة، فتقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" ليس لي حول وقوة حتى للقيام بطاعته إلا حينما يعطيني حولًا وقوة، ومثله حين تخرج من بيتك لأي مصلحةٍ في الدنيا أو في الآخرة فتقول: "بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"، ومثله ما تقوله في أذكار الصباح والمساء:"أصلح لي شأني كله" كله ليس جزءًا فقط، وتقول أيضًا: "ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" وفي رواية أحمد "إن تكلني[1] إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة وأنا لا أثق إلا في رحمتك". فالنتيجة: انتبه إما ستكون متقيًا أو مستغنيًا.

عُلِم من ذلك أن الله -عز وجل-عليك رقيب يرى فلتات قلبك واستغناءه عنه؛ فمطلوب منك طول الوقت أن تقوم بدورك ووظيفتك الأساسية: أنت عبد لا غنى لك عن الله، والله رقيب يرقب فيك عبوديتك، وتعلقك به وحاجتك الدائمة إليه، فلذلك تبقى طول الوقت مُتقيًا أن تستغني عنه، متعلقًا به، لا تلتفت عنه أبدًا!

تبينت الآن علاقة اسم الرقيب باسم الرب، وكيف تنتج التقوى.

أسئلة: ماذا عمن يغفل عن ذلك وينسى؟

- الذي ينسى يَمُدُ قَلبُه بأمرين:

١-الأمر الأول: كثرة ملاحظة أفعال الله، (ستأتينا في اسم الرب).

---

[1] رواه النسائي

٢-الأمر الثاني: احذر من: (ألهاكم التكاثر)، فأنت تنسى لأنك وسط دوامة التكاثر، وهذا يوقعك في الالتهاء والغفلة.

- النفث متى يكون؟

(الجواب): في الليل عند النوم فقط، وفي المرض ورد النفث: تقرأ الفاتحة مكان الألم وتنفث؛ أما أذكار الصباح والمساء لا نفث فيها ولا مسح.لم يرد به دليل.

ننتقل إلى اسم الرقيب وعلاقته باسم الله، ونلاحظ أنه أيضًا أتت التقوى مع هذا: (وَاتَّقُواْ اللّهَ):

أولا نتذكر معًا معنى اسم الله: يقول ابن عباس —رضي الله عنه-: "الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين" وهذا بالضبط معنى كلمة (لا إله إلا الله) التي نقولها، يعني نحن نقول: ليس لي إله أعتقد أنه كامل الصفات إلا الله، فهذا معنى **ذو الألوهية** يعني مَن يستحق أن أكون معظمًا له محبًا.

وفي شرح لا إله إلا الله قلنا في معنى الإله: هو المحبوب المعظم غاية الحب والتعظيم، لماذا؟ لأنه كامل الصفات، في آية الكرسي يقول الله -عز وجل-عن نفسه: (اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ) لماذا؟ الجواب: لأنه (حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى أن تصل إلى (العلي العظيم)، إذًا إله يستحق غاية المحبة وغاية التعظيم؛ لأنه كامل الصفات، ثم إذا كان هو الإله المحبوب المعظم فهو **ذو العبودية**، هو المستحق أن أكون بين يديه عبدًا ذليلًا منكسرًا فقيرًا محتاجًا.

ننظر الآن إلى **العلاقة بين اسم الله واسم الرقيب**: يقال لك: اتقِ الله، واعلم أنه رقيب على قلبك؛ فاحذر أن تُؤلّه غيره، احذر أن تصرف غاية محبتك وغاية تعظيمك لغيره، فالله رقيب على قلبك يراه امتلأ بحب من!

---

١ البقرة٢٥٥

وهنا ستأتي زاوية صعبة من حياتنا، يمر علينا أشخاص تمتلئ قلوبنا بحبهم، فكأنه يقال لك: الله يراقبك لابد أن تتقي الله، وتتقي تأليهك وتعظيمك ومحبتك له، وتدفع أن يتضخم أحد في قلبك؛ فتحبه غاية المحبة أو تعظمه غاية التعظيم، ثم انظر آثار التعلق بغيره:

انظر كيف يصبح الناس عبيدًا للناس من جهة محبتهم وتعلقهم، تجد العشاق الآن يكتبون كلامًا لا يصح إلا في حق الله!

انظر إلى مشاعر أني أنا أصلًا موجود من أجل أن أحب فلانًا!! هذا الكلام نسمعه ونقرؤه، صحيح أن ثلاثة أرباع الذين يكتبون مثل هذا كذابون؛ لكن هناك الربع الباقي منهم – خصوصًا سن الشباب الذين لم يجربوا الناس بعد – فهؤلاء حين يدخل قلوبهم أحد يتضخم ويعظم حبه، حتى يفقدهم طعم الحياة من دونه، وقد تخف عقولهم بسببه إلى درجة أن يقول له: لو أخرجتني مِن حياتك سأنتحر! لو فعلت كذا وكذا سأنتهي! ومن هذا الكلام الذي يمكن أن يحصل حقيقة، ولابد أن نفهم أنه على مر التاريخ يعشق العشاق، ويصيبهم سهم العشق المذل؛ فيصبحون عبيدًا لمن يعشقون، ومن المؤكد أنهم سيتركون تأليه الله؛ لأن هذا العاشق يرى معشوقه كل شيء، وهذا جزء من المصاب الذي نعيشه، أما الجزء الآخر فهو **تعظيم غير الله**، لكن كلامنا الآن عن محبة غير الله.

يعني الذي يشعر أن أحدًا من الخلق يملأ عليه وجدانه، ولا يستطيع العيش من دونه،**يقال له**: **ارقب الله، فالله –عز وجل–يراقب قلبك، يمكنك أن تُقسم لكل الناس وتقول: أنا لا أحب هذا أكثر من الله، لكن الله –عز وجل–رقيب على قلبك يعلم إن كان هذا قد استعمر قلبك، أم هو خارجه!**

واعلم أن كثرة ذكرك للمحبوب إشارة إلى استعماره لقلبك، فكل من يكثر من ذكر شيء؛ فهو يفعل ذلك إما **لحبه، أو لتعظيمه**، ولهذا من إشارات تعظيم الله ومحبته كثرة ذكره، ومن إشارات ضعف تعظيم الله ومحبته كثرة الغفلة حتى يحتاج العبد أن يذكَّر بالأذكار!

اتق الله، واعلم أنه ينظر إلى قلبك، أشفق على قلبك أن يعظم فيه أحد غير الله، فإن هذا المرض إن دخل يصعب خروجه، ولو دخل هذا الشخص في القلب وأخذ مكانه، يعاملك الله -عز وجل- باسمه الرب، فيصبح هذا المحبوب الذي أنت مقبل عليه بكل قواك يعطيك ظهره فجأة بدون مناسبة! فاتق الله، وقم بعملية المجاهدة لتعظيم أو محبة غير الله، الناس يفتنون بمرور شخص في حياتهم، يحبونه محبةً تزاحم محبة الله، ثم إذا فُتحت هذه الخانة في القلب وصرفت لغير الله؛ يتحول إقباله إلى إدبار؛ بل يصبح كلما ازددت له عطاءً؛ كلما ازداد إدبارًا، وكلما ازداد إدباره؛ ازددت أنت تذللًا وكتابة وتعلقًا واستجداءً لمشاعره، تقول طول الوقت:

هل قصرت في حقك؟ قل لي ماذا أفعل حتى ترضى، فيرد: أنا فقط لا أحب رؤيتك، ولا أريد أن تكلمني، ولا تفتح أي مواضيع معي، وأنا حين أراك أشعر بنار في قلبي...أرأيتم كيف الجزاء!! كثيراً ما تحصل هذه الأحوال ويُساء تفسيرها، ثم بعد ذلك يخرج بالقوة، ينزع بكل ألم، والسعيد من يتعظ بهذا؛ فلا يعود لصرف مشاعره لغير الله، وغير السعيد يعود لدخول تجربة جديدة، وحب جديد، **وكأن الذي تألم كل ذاك الألم لم يكن قلبه، والذي ربي كل تلك التربية لم يكن عقله،** ويبرر تصرفه بأن هذا الشخص غير، وصفاته غير، وتعاد عليه التربية والجزاء، و الله المستعان.

ونتنبه هنا فيما لو كان هذا الشخص هو الزوج؛ فهنا قد يلتبس على المرأة فتظن أن هذا من المحاب الطبيعية، نقول: نعم لكن لا تنسي سورة التوبة (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ)[1] فكل المحبة الطبيعية ممكن أن يحصل لها التضخم، الحد الطبيعي معروف ولا يحتاج وصفًا، لكن نحن نتكلم عن حد يزيد عن الطبيعي، يكون (أَحب) وترى الأُنس كله به، ترى أن الحياة له، ترى أن عدم وجوده نهاية للحياة، لا تفكر في قبرك ولا تفكر في لقاء الله ولا في شيء.

- **ما العلاج؟**

[1] التوبة ٢٤

١-أول العلاج معرفة أن الله يرقب قلبك، أن الله -عز وجل-سيعاقبك، انظر ستُجلَد من نفس الشخص الذي تعلقت به، يعني هذا الشخص الذي تتعلق به وتحبه يعمل عملين: أول الأمر يأخذ قوتك ثم بالقوة التي أعطيته إياها يجلدك بسياطه، تجلد بسياط الألم، ألم الفرقة، ألم الهجر، يعني أنت تفعل ما تفعل وتقوم بما تقوم وهو في المقابل مُعرض، فهذا الإعراض ما سببه؟ أن الله يربيك كيلا تعظم أحدا في قلبك أبدًا ولا تتعلق بغيره -سبحانه وتعالى- وكل شيء يبقى في الحد الطبيعي، كل المشاعر لابد أن تبقى في الحد الطبيعي لا تتضخم، والحل طبعا يطول لكن أوله وأهمه أن تعلم أن الله -عز وجل- رقيب، فإذا كان الله رقيب فراقب قلبك؛ لأن هذه المشاعر لا تتضخم في القلب مرة وحدة، بل تتضخم قليلًا قليلًا.

هل تعلم لماذا تتضخم ويكبر الناس في قلبك؟ لأنك غفلت عن وضع حد، كلما خطر لك أن تتكلم تكلمت، كلما خطر لك أن تفعل فعلت، ولا تفكر أن هذا مثل النار تشب ولا تنطفئ إلا حين تصبح أنت رمادًا! فمِن أجل هذا لابد من ملاحظة نظر الله إلى قلبك، لا تغش نفسك، لا تستهن بتصنيف الكثير من علاقاتك على أنها محاب طبيعية: هذا حب في الله، وهذا حب للزوج، وهذا وهذا....كل هذا الكذب سببه تركك تقوى هذه المشاعر.

حسنًا ما الضابط؟ الحب الطبيعي معروف، يعني الانسان في الحب الطبيعي لا ينسى، بل يأنس بمن يحب؛ لكنه يبقى طبيعيًا لو قضى محبوبه زمنًا بعيدًا عنه، ويمارس حياته بشكل طبيعي. ولتعرف الحب الطبيعي انظر إلى وضع النساء بعد عشر سنوات من الزواج؛ أليست ساعات خروج الزوج من البيت تصبح ساعات مباركة؟ نستطيع فيها أن ننتبه لأولادنا، ولأعمالنا في البيت وغيره، ولو بقيت المرأة تتابع زوجها بعد كل تلك السنين: أين ذهبت، ومع من تكلمت، وإلى من نظرت.....هل تستطيع أن تقول أن هذه محبة طبيعية؟!

الطبيعي أن يقل هذا التعلق، ويتجه التفكير إلى الحياة ومسؤولياتها، وإلى لقاء الله، والبحث عن مؤنس في القبر، وستفكر هل الذي يؤنسك هنا سيبقى يؤنسك حين تدخل قبرك، إن لم يكن ذلك فستلتفت لأنيس لا يتخلى عن مؤانستك حين تدخل قبرك، ولن تجده إلا عملك!

هذا التفكير بداية نضج، وهذا الكلام لايقال لامرأة متزوجة من سنة أو سنتين؛ إنما يقال كلما تقدم الأمر، مع أنها قد تصاب بهذا المرض في أول سنوات الزواج، ثم يستشري ولا يتوقف، إلى درجة أنه في مواقف كثيرة تلتحق المرأة بحلقة قرآن كي تعالج قلبها من التعلق بزوجها، وفجأة في وسط الحلقة تتذكر شيئًا، فتقوم إلى زاوية وتكلمه: أين وصلت؟ مرّ من الوقت نصف ساعة ولا أدري أين أنت!! قصة الزوج قصة طويلة، والله المستعان.

المقصود في نهاية الأمر أنت ما المطلوب منك؟ ترقب قلبك، حتى الزملاء والأصحاب والأبناء، الأبناء ماذا سماهم الله في كتابه؟ انظر كيف وصفهم بأنهم عدو ((في لحظات وليس في كل اللحظات)).

التضخم = نسيان أن أمامك قبر، نسيان أن معاملتك مع أبنائك إنما هي وسيلة للوصول إلى رضى الله، عندما تنسى هذا الشعور ستستجيب لهم حين يحملونك على معصية، لمجرد إرضائهم، وهنا يصبح وصفهم (عدوًا)؛ لأن حبهم تضخم في قلبك حتى أصبح أعظم من حب الله!! وهذه مصيبة عظيمة، فاتق الله.

٢- ثم الإيمان، البحث عن كل أسباب زيادة الإيمان، ارتباطك بالعلم، سماعك عن الله وطلب معرفته، انكبابك على كتاب الله.

والله نحن في مصاب عظيم، فالتي لم تتعلق بزوجها تعلقت بصاحباتها، والتي لم تتعلق بصاحباتها تعلقت بأولادها، أنواع مختلفة من التعلقات، وفي النهاية هناك أحد غير الله نطوف حول رضاه، والأُنس به، ونسعى لثنائه وإعجابه، وندور في فلكه، ويقال لنا: اتقوا الرقيب الذي يرى قلوبكم حين تقفون للصلاة وأنتم مشغولون بغيره؛ بل وأنتم في كل حين مشغولون بغيره، اتقوا الله وقد عرفكم أنه وحده المألوه الذي يستحق غاية حبكم وتعظيمكم وانشغال قلوبكم!!

ولا ننسى أن أهم أسباب زيادة الإيمان: الانكسار بين يدي الملك ألا يجعل في قلبك أحدًا غيره -سبحانه وتعالى-. احفظ قلبك فهو مكان نظر الرب، احفظ قلبك ليحفظك الرب -سبحانه وتعالى-.

لنكمل الآية: (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ) ، ماذا يعني؟ اتقوا الله الذيْ تُعظمونه؛ فيسأل بعضكم بعضًا باسمه.

عندما نريد أن نضغط على أحد لِيُلَبِّي لنا حاجة، نقول له:(أسألك بالله) نريد منه أن يُعظم الله فيُعطيني سُؤلي-، يعني كأني أقول له:إن كنت معظمًا لله؛ فأنا أسألك بالذي تُعظّمُه أن تعطيني سُؤلي، فماذا يقول الله عز وجل؟ (وَاتَّقُوْا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامْ):إن كنتم تتساءلون به فيفترض أنكم تحبونه وتعظمونه لدرجة تجعلكم تتقونه!

إن كنتم حقًّا معظّمين لله، محبين له، وترون لحبه وتعظيمه من الشأن ما يجعلكم تتساءلون به؛ فاتقوه، ولا تستعملوا تعظيم الله ومحبته في مساءلة بعضكم بعضًا به لاستجلاب مصالحكم فقط، ثم لا تتقونه!

إذًا: علاقة اسم الله بالرقيب: أن تتقي أن تؤلِه غير الله محبة وتعظيمًا؛ فهو يرقب قلبك.

وهنا نقطة في غاية الأهمية:

أن هذا المؤلَّه قد لا يكون شخصًا؛ **بل قد يكون هواك!**

قال تعالى:{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ }[2]

(إِلَهَهُ هَوَاهُ) ماذا يعني؟ معنى الإله: المحبوبُ المعظّم، فكأنه يُقَالْ: انتبه قد تأتيك لحظة تضخم فيها أحدًا؛ لكنه ليس من الخارج، ليس(آباؤكم ولا أبناؤكم)؛ إنما ذاتك و نفسك تتضخم عندك حتى تكون إلهًا، تحبها تمام المحبة، وتعظمها تمام التعظيم.

---

١ [النساء]

٢ [الجاثية ٣]

و من أجل ذلك عدم فَهْمَنَا لكلمة (إله) أضعفت فينا معنى (لا إله إلا الله)، صحيح أننا بفضل المنان نؤلّه الله؛ لكن يمكن أن يكون الإنسان عابدًا لربه، وفجأة يجد نفسه قد دخل تحت

قوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ } **وهو لا يشعر، فيصبح المحبوب المعظم رأيه، أو تفكيره، أو فلسفته في الحياة، ويقدمه على الله، وعلى قال الله، وقال رسوله.**

انظر إلى عَبَدَة بُوذَا كيف يؤلهون (بوذا)، وإلى الهندوس كيف يؤلهون البقر؟!

حين وقع زلزال الهند(والهند قد تولت القيادة في مسألة استعمال الانترنت، وأطلقت أقمارًا فضائية كثيرة تُقوّي اتصالاتها، فهي من هذه الجهة في العلو)؛ بدل أن يبحثوا عن وفيات الزلزال وباقي الأحياء أخذوا أبقارهم، وداروا على الأماكن، ظانين أنهم يستدفعون غضبها بذلك، وأنها تدلهم على الأحياء، وتبارك الأموات؛ فاللهم سلم سلم**!**كم يهوي الإنسان إلى أسفل سافلين حتى لو ترقى في العلم؟! وإلى أي درجة قد يُفقد التوازن في القلب؟!، قوم بلغوا فيما يتصورون عَنَانَ الفضاء وفيما **يعتقدون** هم عند هذه البقرة، وهذا ليس خيالاً، من يُتابع الأفلام الوثائقية يرى أن هذه حقيقة و ليس افتراءً منَّا عليهم، هذا بغض النظر عن بعض المناطق التي تعبد الفئران أيضًا.

بهذا نفهم ما هو التأليه؟ معناه أنهم يتجهون إلى أحد فيُحِبُّونَهُ ويُعَظِّمُونَهُ تمام التعظيم، ولذلك هم في دينهم يبغضون من يذبح البقر ولاءً لهذا الأمر،

ولا بد هنا من التنبيه على أمر مهم وهو أن تعرف أنه لا يزال هناك صوت يُنادي في فطرة كل الخلق قائلًا:

"هناك واحد عظيم له كمال الصفات فوق هؤلاء كلهم".

١ [الجاثية ٢٣]

هذا الصوت يبقى يُلِح عليهم، ويدفعهم للبحث، فهناك من يستجيب له فيخرج من باطله، سواء كان يعبد (بوذا)، أو يعبد (البقر)، أو يعبد ما يعبد، وهناك من يسكت هذا الصوت حتى يخنقه، وهناك من ضلّ في بحثه فلم يستجبْ كما ينبغي، وهذا ما يفسر لك كيف أن هندوسيًا يعيش بين المسلمين، ولا يسلم، وهندوسيًا في أرض الهند ويسلم! لماذا؟ ليست القصة فقط في عَرْض الإسلام، وإن كان عرض الإسلام أمر مهم، ومسؤولية، لكن لابد أن نفهم أن الله أعطى الخلق كلهم قدرة في قلوبهم –صوتًا– وهذا الصوت الذي جعل العرب حين يأتي الاضطرار لا تتجه إلا إلى رب السماء! ومثل هذا تجد شواهده عند من دخل في الإسلام، فهناك أناس لم يمد لهم أحد بورقة، ولا كلمة، وإنما نداء القلب إلى أنه لابد أن يكون هناك واحد فوق الجميع دفعهم!

وقد ذكرنا سابقاً أن **هذه المشاعر هي التي تدفع كثيرًا من الغرب و الشرق لِتَنْفِيثِهَا في شيء مثل الرجل الخارق – سوبرمان– أو غيره، فهم يتصورون أنه لابد أن يكون هناك أحد في العلو، وقريب، ويعرف الأحوال، ويستجيب لو نُودِي، وله قوة خارقة، لماذا؟ هذا كله استجابة لفطرة أقامها الله في قلوبهم، ولكن** هناك من استجاب فأفسد في استجابته، وهناك من استجاب فأرشده الله { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } ، { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } ،. (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [٢]لابد من فهم ذلك جيداً؛[٣]بل إن من رحمة الله بهؤلاء أنهم حين يسلمون حتى لو في عمر متأخر، ويحسن إسلامهم؛ فإن الله، يبدِّل خطايا عمرهم الذي مضى حسنات، وهذا إشارةً إلى تمامِ عدله سبحانه وتعالى.

المقصد أن الله جعل في القلب نداءً يقول أن هناك (إلهًا واحدًا).

١ [محمد ٧]
٢ [الصف]
٣ [الكهف ٩]

وهناك أيضًا حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعز عزيز وذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فيدينون لها ".[1]

لو بحثت في أيّ محرك بحث (عن المسلمين في أواسط آسيا) سترى عجبًا من الأعداد التي دخلت في الإسلام وتعرفت عليه، هناك في أواسط آسيا في الأدغال، وفي هضابها، وسهولها من هو مسلم؟! كيف؟ قد لا تدرك كيف دخل عليهم؛ لكنك ستتيقن بحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

لا تعتقد في لحظة أن الله يوكّل الخلق لك، أو حتى للمسلمين؛ إنما هو وكيلهم، الله وكيل الخلق، نحن ابْتُلِينَا، (اخْتُبِرْنَا) أنّ بعض غير المسلمين وصلوا إلى بيوتنا، ويفترض أن ندلهم على الإسلام؛ لكنه سبحانه في باقي الخلق لم يكلفنا فوق طاقتنا؛ بل يوصل لهم (العلم عنه) من أبواب لا نعرفها.

إذًا: هناك أمران يقضيان على أي شك:

١- أنّ الفِطَرْ كلها مستعدة للإيمان (الصوت العالي): جعل الله في قلوب الخلق هذا الاستعداد الفطري الكامن بأن هناك واحدًا، عظيمًا له كمال الصفات، ليس مثيلًا للبشر.

٢- خبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه (لا يكون بيت من مدر أو حجر أو وبر إلا و يدخله الإسلام).

بقي أن هناك من يستجيب، وهناك من لا يستجيب، وهذه التفاصيل الله عز وجل أعلم بها.

والخطر على أهل الإسلام الآن في: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } وفي أن تظن أن أهل الإسلام[1] لا يعودون إلى الشرك!، اسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم:

---

١ [مسند الإمام أحمد]

" لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِيْنَ وَحَتّى تَعْبُدُ فِئَامٌ مَنْ أُمَّتِي الأَصْنَامْ " [٢]

(فِئَام): (يعني كثير من الناس)، (مِنْ أُمَّتِي): (أمة الإجابة).

لازلنا نشعر بالخوف، شعورك بالأمان يناقض موقف إبراهيم عليه السلام { واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [٣]

و قد حكت لي أخت –بارك الله فيها– أنها كانت تسمع أوائل دروس التوحيد، وحين تسمع كيف يُكَرِر أهل العلم أنه لابد أن تدعو لأبنائك، كما دعا إبراهيم عليه السلام وهو إمام الموحدين وله مواقفه العظيمة في التوحيد كان يدعو لأبنائه:{ واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ }، وكانت تدعو، وتقول أنها لا تشعر في قلبها أنه سيأتي ذاك الوقت الذي يمكن أن يتعرض أبناؤها فيه لعبادة الأصنام، ويكتب الله عز وجل لزوجها عملًا في اليابان؛ فتذهب مع أبنائها إلى الأصنام، ويكون ذلك الدعاء في مكانه بالضبط.

لذلك علينا متابعة ما أمرنا به، ولازلنا نعيد: (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)، (إن تكلني إلى نفسي.. تكلني إلى ضعف و عورة و ذنب و خطيئة) {واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ }

لا تنس أبدًا أن (التأليه) يمكن أن ينحرف؛ دون أن يذهب إلى: (بوذا)، أو إلى (البقر)، أو إلى (الفئران)؛ إنما يذهب إلى (الهوى)؛ فيكون **الهوى إلهك** الذي تعبده من دون الله، حين تقدمه وتعظمه على أمر الله.

فالقضية لها ملابسات، ولأجل ذلك (لا إله إلا الله) لها شروط يجب أن تحقق، لها شروط يجب أن تتكرر، لها حقائق يجب أن تُلاحظ في كتاب الله.

---

١ [الجاثية ٣٢]
٢ [رواه مسلم والبرقاني في صحيحه]
٣ [إبراهيم ٣٥]
٤ [إبراهيم ٣٥]

تبين بهذا علاقة الرقيب باسم الله، وكيف تنتج التقوى.

نعود إلى أسئلتنا السابقة، ونسأل السؤال الرابع:

٤ . لماذا هذه الآية التي أمر فيها مرتين بالتقوى في سورة النساء؟

سورة النساء تُناقش أنواعًا من العلاقات الاجتماعية: علاقة الرجال بالنساء، الميراث، الأرحام، المعاملات بين الأفراد، والكلام حول (التقوى) وأن الله (رقيب)، فنعلم من هذا أنه إذا فقدت (التقوى)، وفقد اعتقاد أن الله رقيبٌ على ما قام في القلب؛ فسدت هذه العلاقات، وهذا أمر عظيم يجب أن نفهمه جيدًا، ويجب أن نفهم أن الشريعة في كل الأخلاق تخاطبنا بـ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا) كل الأخلاق تُخاطبك بالإيمان.

والأخلاق تنقسم إلى قسمين: نفعية، وتعبدية.

إلى من يقول أن الكفار ليس عندهم إيمان ومع ذلك عندهم أخلاق نقول: هناك أخلاق نفعية، وأخلاق تعبدية، وأنا لن أناقش النوع النفعي؛ إنما فقط أضرب مثالًا عليه، ليتضح الأمر:

انظروا إلى الكلام عن (الحرية) متى يستعمل عندهم؟

حين يكون الكلام لصالح العري، والتفسخ، وما تعلمون من أمور الفساد، وحين نأتي لحق النساء في حرية الحجاب يلغى الكلام عن الحرية، فحين تنفعهم الأخلاق يتعاملون بها، وإلا يضربون بها عرض الحائط!

نترك الأخلاق النفعية، و نتكلم عن الأخلاق التعبدية:

كل الأخلاق التعبدية تُبنى على الإيمان، ولنر بعض الأمثلة على ذلك:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ } لم بدئ الأمر باجتناب الظن ب: يا أيها الذين آمنوا؟

لأن ترك ظن السوء الذي يدور في داخلك تجاه إخوانك المؤمنين وأنت متأكد أن كل الناس لا تعلمه، لن يتأتى إلا من قوة إيمان بأن الله رقيب مطلع على ما قام في قلبك؛ فلأنك مؤمن أن الله (رقيب) ستتقي ظن السوء؛ فانظر إلى أي درجة الإيمان بأن الله (رقيب) سبب لاعتدال السلوك الاجتماعي.

مثال آخر: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا} تصور أن التفسح في المجلس يحتاج إلى إيمان!

تؤمن بأن الله عز وجل سينظر إلى قلبك؛ فيراك تفسحت إيماناً به، رغبة فيما عنده؛ فتتفسح، في حين أن هذا التفسح قد يقع لغير الله،فمثلًا: تكون في الحرم، فيأتيك من يحتاج أن تفسح له ليجلس؛ فتخبره أن المكان ضيق، ثم يأتي أحد معارفك؛ فتقول: الوسع في القلوب وتفسح له!! لقد تفسحت في المجلس؛ لكن ليس لأجل الله، ولا قربة له!

يحصل هذا حين لا تتصور ماذا ينتظرك بسبب التفسح، يقول تعالى: {يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا} ماذا تنتظر؟ تنتظر أن يفسح الله لك والله عز وجل يرْقب قلبك حال فَسْحِكَ أنك تُلاحظ نظره سبحانه وتعالى، فتفسح منتظرًا أن يفسح لك في الدنيا، وفي قبرك، ويوم القيامة، هذا كله تنتظره، فانظر لإيمانك باسم (الرقيب) و كيف يُسبب لك تقوى، خصوصًا في العلاقات الاجتماعية.

---

١ [الحجرات ٢ ١]
٢ [المجادلة ١ ١]

نكمل الآية: (وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوْا) ما معنى انشزوا؟ أي ارتفعوا، كما يقال في المكان المزدحم: ابتعد حتى يمر الناس، تأمل! ابتعادك كَيْ يمرّ الناس يحتاج إلى إيمان، لأنه إن لم يكن هناك إيمان؛ فما أسهل أن يقال: أنا ومن بعدي الطوفان، وإذا وجِد الإيمان، تأتي ذاك الهين، اللين، ليس لأجل فلان، أو فلان، فالناس عندك سواء في تلك اللحظة، كل تفكيرك في:(ارتفع.. ابتعد.. وَسِّعْ للمسلمين) لـ (يَرْفَعِ اللهُ الذِّينَ ءَامَنُوْا وَالّذِينَ أُتُوْا الْعِلْمَ دَرَجَاتْ) .[٢]

تصور ابتعادك ونظر الرب إلى قلبك، وأنت تستحضر في هذا الارتفاع و البُعد والقيام وإفساح الطريق للمسلمين مراقبة الله لما قام في قلبك، وتنتظر الارتفاع عنده كما وعدك أنه سيرفعك بهذا الفعل اليسير! لهذا لابد أن تتصور أن ثبات الأخلاق واستمرارها في السر والعلن؛ مرهون بالإيمان، لا بد من: {يا أيها الذين آمنوا }، وإلا فيمكن أن توجد الأخلاق ؛ لكنها ليست ثابتة في كل الأحوال؛ إنما مرتبطة بالنفع والمصلحة.

فسورة النساء سورة ضبطت العلاقات الاجتماعية، بأنواعها سواء بالتفصيل أو بالإجمال، خصوصاً علاقة الرجال بالنساء التي تُبنى على التقوى، وعلى رقابته سبحانه وتعالى، فدائما السُلطة الأعلى وهو الرجل – بالنسبة للمرأة – يحتاج أن يُذكَّر بالتقوى، ويُحتاج أن يُذكَّر برقابة الله، هذا إذا نظرنا للسلطة، ومن جهة أخرى المرأة تحتاج أن تذكر بالتقوى والرقابة من جهة أسرار البيوت، وفي حال غياب الرجل، كل هذا يحتاج التقوى واعتقاد أن الله رقيب.

نجحت العلاقات الاجتماعية، واستوت على سوقها، وأصبحت ناضجة؛ حين بنينا بيتًا أَهْلُهُ أهل إيمان، هذا يتقي الله في هذه، وهذه تتقي الله في هذا، كلهم مؤمنون أن الله يرْقب قلوبهم.

هذا الرجل ممكن يدّعي دعوى، ويستنصر قبيلته كلها على المرأة، والمرأة يمكن أن تدّعي دعوى وتستنصر أهلها كلهم على الرجل، لأنه لا يوجد اسم (الرقيب)، ولا يضبط هذه العلاقات إلاَّ أن يعلم المرء أن الله (رقيب).

---

١ [المجادلة ١١]
٢ [المجادلة ١١]

كم جلست المرأة في مجالس النساء وأفشت سر زوجها وهو لا يعلم، لكن حقه عند الله محفوظ، وهو الرقيب سبحانه وتعالى، حتى لو أنكرت وحلفت له واطمأنت لتصديقه؛ لكن الله، الرب، الرقيب الذي يجب مراقبته، وتقواه يربيها، وإن ستر عليها وهو سبحانه ستّير يستر على عباده ويُعاملهم بحلمه.

المقصد من هذا الكلام كم من خيانات من الأطراف، كلها في العلاقات الاجتماعية تحصل، وسببها كلمة واحدة:

(لا يعلمون أن الله رقيب)، والخيانات على جميع الأصعدة والمستويات، ابتداءً بالخيانات العظيمة، وانتهاءً بالخيانات القلبية، وهذا كله له سبب واحد:عدم اعتدال العلاقات الاجتماعية، سواء بين المرأة و الرجل، أو بين الناس عمومًا.

ولا تنس أن الله ينظر إلى قلبك ويختبرك، هل تحسن لأجله، أم لأجل مصلحتك، ومثال ذلك: عندك سائق و أعطيته مبلغًا من المال زيادة على راتبه، لأنه حصل له ظرف هذا الصباح مثلًا، وفي العصر تتصل عليه ليأتيك؛ فيقول أنه مشغول! ماذا تقول هنا؟

جاء هذا بعد إعطائه المبلغ دون سائر الأوقات لأجل: (اَتَّقُوْا) وهو (رقيب) و أنه سيرى {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } هل أَعْطَيْت لله؟. أتاك الاختبار.

إذًا: مهم جداً، وأنت تدرس في القرآن أن تلاحظ: لم بدأت السورة بهذه الآية؟ لم انتهت بهذه الآية؟

فهذه سورة النساء، وهذه البداية (التقوى)، اسم (الله)، اسم (الرب)، اسم (الرقيب)،

١ [العنكبوت: ٣]

ما العلاقة؟ كلّ العلاقات الاجتماعية يُنظمها، ويُوصلها إلى الرقي، وإلى المستوى العالي في العطاء، وعدم انتظار الردود، وانتظار الأجر من الله، عِلْمك أن الله رقيب، فتتقِي الله بقلبك وأنت تُعامل الذي تُعامله قبل أن تتقيه بمعاملتك، تكون صادقاً مع الله، وهذا ما يُنجح العلاقات الاجتماعية، وعدم وجوده أتى بالعكس: كل ما تتصوره من نفاق اجتماعي، وكل ما تتصوره من خلل في وسط الجماعات، وخلل بين الأرحام، كل هذا بسبب عدم مراقبة الله عز وجل، وعدم ملاحظته في العطاء والمنع و الحب والبغض.

على كل حال انتهى معنا موطن النساء الحمد لله.

سأنتقل إلى موطن الأحزاب وفيه سأُشير إلى السياق أيضا لكن إشارةً مختصرة:

انظر لآية الأحزاب ستلاحظ ملاحظة أخرى تشبه الملاحظة الأولى: هنا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأزواجه رضي الله عنهن جميعًا.

ماذا يقول الله في آخر الآية؟ (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) ، سننظر في الآيات ونبدأ لمن نهاية آية(٥٥-٥٤-٥٢-٥١-٥٠)

-هذا نوع دراسة أخرى: انظر كيف تكون هناك علاقة بينهم، الآية التي هي مكان الشاهد(وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) سأنظر إلى الآية التي قبل، والآية التي بعد، و السياق بالتفصيل لنرى كيف تكون هناك علاقة بينهم، نأخذ الأوامر، ونرى علاقتها بالرقيب:

سأذكر إرشادات سريعة، على أن تقرؤوا هذا المقطع:

١ [الأحزاب ٢ ٥]

انظر الآية (٥٠) (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) ، (٥١) (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا) (٥٢) (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)[2] آية (٥٤) (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) آية(٥٥) (إِنَّ اللَّهَ [4] كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) أكيد أن هناك علاقة. [5]

لو بدأت بـ (٥٢ –٥٥–٥٤) سأستطيع معرفة العلاقة سريعًا، الرقيب ما وصفه؟ (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)، (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)، (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)كلها مشتركة (بكل شيء، على كل شيء)، الله عز وجل من وصفه أنه رقيب لأنه عليم و(كان على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) يعلم الشهادة، ولذلك غالب العلماء يشرحون اسمي (رقيب وشهيد) معًا، وها هي مجتمعة معًا في سورة المائدة التي يقول الله عز وجل فيها عن عيسى: { **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } [6]

انظر كيف اجتمع اسمي (الرقيب و الشهيد)، وفي الأحزاب أتى: (رقيبًا وعليمًا، وشهيدًا) فلهم علاقة معًا، والعلاقة واضحة.

نعود إلى ما قبلها وهذا من باب جمع أسماء الله التي أتت في سياقٍ واحد، ((ومثل هذا في سورة الحج اقرأ جيدًا في سورة الحج، وانظر كيف تختم كل آية في (صفحة كاملة) باسمين من أسماء الله، وكيف تكون الآية لها علاقة بالاسمين، ثم السياق كله له علاقة ببعضه، لأن هذا كلام العزيزِ الحكيم، فلا تظن أن شيئًا يأتي كما اتفق، لا تظن ذلك في كلام الله أبدًا، وهذا من زيادة الملاحظة والاعتكاف على كتاب الله أن ترى كيف تكرر في هذه السورة هذا الوصف، وفي تلك السورة ذاك الوصف!

---

١ [الأحزاب ٥٠]
٢ [الأحزاب ٥١]
٣ [الأحزاب ٥٢]
٤ [الأحزاب ٥٤]
٥ [الأحزاب ٥٥]
٦ [المائدة: ١١٧]

مثال: (سورة طه) تكرر فيها (الرحمن) ٣ مرات.. لماذا؟ من المؤكد أن هناك علاقة بالقصة، وبالمقصود في السورة وهكذا)).

نرى السياق السابق مباشرة: قبل أن يقول أنه (رقيب) قال لك أنه (عليم، حليم)، ونحن نشرح اسم (الرب) و(التقوى) و(الرقيب) أتانا اسم (الحليم) مرات، ومرات؛ فما العلاقة بين الرقيب، والعليم، والحليم؟

أن تعتقد أنه مع علمهِ التام ومراقبته سبحانه وتعالى التامة لك، وعلمه بما قام في قلبك، ومع ذلك يُعاملك بحلمه: كم وقع في قلبك من سوء الظن به؟ كم وقع في قلبك من ضَعفِ الإيمان به؟ كم مرة شكَكْتَ في قدرته؟، كم مرة قدّمت قول غيره على قوله؟، كم، وكم، وكم وهو مطَّلع على ما فعلت، رقيبٌ على قلبك، مطّلع على دقائق فعلك ومع ذلك يُعاملك بحلمه. (عليم بما قام في قلبك وما يقع منك، ومع ذلك يُعاملك بتمام حلمه)!

لذلك حين تسمع أن الله يَرْقُب ما قام في قلبك؛ لا تفهم أن مراقبته تعني أنه سيخسف الأرض مباشرة تحت قدميك، وإن لم يفعل فهو ليس بعليم! لا تفهم هذا فإن هذه المشاعر يأتي بها الشيطان.

كثير من الأحيان يستمرئ الإنسان الباطل الذي هو فيه، يمارس أمراض قلبه: شبهات، أو شهوات بقلبه قبل بدنه، ثم لا يرى عقوبة الله، وكم من شخص يقول: أنا أرى أناسًا يعصون الله عز وجل وأرى في كلامهم؛ بل في أنفاسهم الكبر، ومع ذلك لم أر أرضًا خُسفت بهم، ولا تعاسةً وقعت لهم! ماذا تقول؟

الله عز وجل ينظر إلى قلوبهم وعليم بحالهم، ورقيب عليهم؛ ولكنه يُعاملهم بحلمه، فأنت لا تستعجل، أنت لم تُوَكَّلْ بأحد من الخلق، ما وكلك الله على أحد، أنت عليك بنفسك، لا تقل: لَمِ أُربى مباشرة حين يتلفت قلبي بعيدًا عن الله وغيري لا يربى؛ فأنت عُومِلت بالرحمة، وغيرك عومل بالحلم، ونعود لنعلم هو سبحانه غفور ورحيم مع من، وحليم مع من؟

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[1] (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)[2] : بعض الخلق –وهذا من تمام حكمته– يُعاملهم بحلمه مع أنه يعلم ما في قلوبهم، ورقيب عليهم، وبعض الخلق يعاملهم الله عز وجل برحمته، ويغفر لهم زلتهم، ومن رحمته أن يربيهم، ومن رحمته أن يُنبههم.

من تمام الرحمة أن لا تبقى في الحياة مغترًا، يعني تصور أنك طول الحياة لا تحرم ممن يؤنسك، ولا مما تحب، كيف ستستطيع تصور لحظة الموت التي لا أنيس فيها، ولا قريب، ولا مجيب، ولا حبيب، ولا أي شيء؟ أليس من الرحمة أن يُهيئك للحظة لابد أن تدخلها؟

ولو عشت الحياة بلا ضيق كيف ستنتبه لضيق القبر فتسعى لتوسيعه قبل أن تدخل عليه؟

ولو عشت الضياء بلا ظلام كيف ستستعد للظلمة الحقيقية الآتية فتسعى لإنارتها قبل قدومها!

ألست تتلمس أن تؤنس نفسك بشمعة حين يغشاك الظلام في الدنيا؟ كيف لا ترى رحمة الله حين أذاقك هذا يعلمك به ما أنت مقدم عليه؟!

إن في القبور أناسًا يتنعمون – بسبب إيمانهم– بالنور في الليل والنهار؛ فكلاهما عندهم سواء، وإن في القبور أناسًا لم يسعوا لإنارة قبورهم؛ فأظلمت عليهم بالليل والنهار؛ فكلاهما عندهم سواء، أسأل الله أن ينزل النور على قبور أهل الإيمان، وأن يجعلنا من أهل النور في قبورهم، اللهم آمين.

مثل هذا (الكرب): من رحمته أن تعيش كُربة لتفكر في كرب القيامة، ولتتحمل أن تعمل أعمالاً من أجل أن تفرج هذه الكرب، فجمع الله لك حين أذاقك الكربة بين أمرين:

- بين (مغفرته) بسبب بلائك بهذه الكربة: يُغفر لك ذنبك لو عاملت الكربة كما ينبغي.

---

١ [الأحزاب ٥٠]
٢ [الأحزاب ٥١]

- وبين (رحمته)أنك عشت كربة جعلتك تنقل مشاعرك إلى كرب يوم القيامة، وهذا موطن من مواطن الأجر.

لو نظر الله إلى قلبك؛ فرآه مهمومًا يرجو أن يلقاه على خير حال، محبًا للقائه، خائفًا من ذنوبه أن تعيقه؛ لكان هذا موطنًا من مواطن الأجر لوحده!، بالإضافة إلى كونه سيحركك للسعي كي تفرج عن نفسك كرب يوم القيامة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) يعني يوجد كُرب يوم القيامة

ما علاقة هذا باسم (الرقيب)؟ تزيغ القلوب، والله يرقبها، وهو الرب سبحانه، فكيف يعامل الخلق؟

١- نوع يعاملهم بحلمه مع علمه.

٢- ونوع يعاملهم باسمه (الرب)؛ فيربيهم، وتربيته لهم رحمة، ومغفرة أيضاً.

لأنك حين تستقبل آثار التربية المؤلمة بالرضا عن الله، والصبر عليها؛ ستخفف عنك ذنوبك، وفي نفس الوقت رحمةً منه أن يربيك؛ لأن هذه التربية ستعدل من سلوكك بلا شك إن انتبهت لها، وأعطيتها حقها، وإليك ما يوضح ذلك:

تتكلم على أحد بكلمة، ثم تدور الأيام فتسمع هذه الكلمة على نفسك! هذه تربية من الله سبحانه، إن أكرمتها وأبقيتها في عقلك ستعقلك عن قول كلمة أخرى في حق عباد الله، ستكون سببًا في تقواك، وسببًا في تقوية إيمانك بأن الله رقيب يعلم ويحفظ الحقوق، وإن لم تتربَّ من هذه المرة يعيد عليك الكرة، لتنتبه، وهو سبحانه يجمع لك بهذا بين خيرين:

أن ما نزل عليك من التربية كان سبباً لمغفرته لك، وأنه بنفسه يعتبر رحمة؛ لأنك لن تحمل هم كربات يوم القيامة، ولن تعمل لها؛ إلا إذا ذقت كربة من كرب الدنيا، لولا هذا الذوق ستبقى كلمة كربة كأنها خيال!

---

١ [واه مسلم]

وكذلك لن تشعر بظلمة القبر إلا إذا رأيت الناس يعيشون في نور، وأنت في ظلمة الهم والضيق؛ فعلمت أنه سيأتيك يوم تكون فيه في ظلمة؛ فقمت تسعى لإنارتها بالقرآن، والعلم، والإيمان، والعبادات، هذه هي الرحمة، وهذا رد فعل العقلاء تجاهها، هذا معنى التربية، وهذا معنى اسم الرب الذي يربيك لتصل إليه في خير حال!

هذا جمع سريع، والمسألة تحتاج إلى تأمل أكثر.

سندخل في تنظير معنى الاسم بعد أن رأينا من الآيات كيف أن أسماءه سبحانه وتعالى يُغذي بعضها بعضاً في الفهم:

معنى الرقيب في حق الله: أي **المطلع** على ما أكنَّته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام، وأكمل تدبير، يعني رقِبَ سبحانه وتعالى أحوالهم وقام عليهم، فلا يعجزه سبحانه أن يعلم ما في قلوب الخلق كلهم في كل لحظة، يعلم كل صغيرة وكبيرة في ملكه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

هذا لو تكلمنا عن اسم الرقيب من **جهة الاطلاع**.

يأتي جزء آخر من المعنى: أنه سبحانه وتعالى **الحفيظ**، حفظ على المخلوقات أعمالهم، وأيضاً حفظ نفس المخلوقات، فهو سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب الخلق، وينظر إلى أحوالهم، ويحفظ أفعالهم، فسيكون **رقيبًا للمبصَرات** ببصره الذي لا يغيب عنه شيء، **ورقيبًا للمسموعات**، بسمعه الذي وسع كل شيء، **ورقيبًا على جميع المخلوقات بعلمه المحيط بكل شيء**.

سنأخذ بعض الشواهد على **معنى** الرقيب، وليس على **لفظ** الرقيب:

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١]

(أَلَمْ تَرَ) أي يجب عليك أن تتأمل وتعلم (أَنَّ اللَّهَ) ما وصفه؟ (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ بل من دقيق علمه أنه لا يكون ثلاثة يتناجون في ظلمة، أو بصوت منخفض (لأن كلمة (نجوى) في اللغة لا تكون إلا على الانخفاض)، (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ) إلا ويكون هو سبحانه وتعالى لهم رابعًا، (وَلَا خَمْسَةٍ) يتناجون إلا وهو سبحانه وتعالى لهم سادسًا (وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ) أي ولا أقل، يعني: اثنين، لتصح كلمة نجوى، (وَلَا أَكْثَرَ) وافتح بابًا أكثر إلى ما تتصور (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) سبحانه وتعالى، أينما كانوا.

الكلام أولاً حول تصوير العدد مع درجة الصوت، يعني تصور اثنين، أو ثلاثة أو أكثر من ذلك، يتكلمون بصوت منخفض، يدبرون ما يدبرون، لأن النجوى إنما تكون حول (التدبير)، ويظنون في قلوبهم أن لا أحد يسمعهم، لأن أهل النجوى حريصون على حفظ نجواهم، فيقول سبحانه: مهما بلغت درجة حرصهم على الاختباء؛ فهو معهم أينما كانوا، يرقب عددهم، وأصواتهم، ومكانهم، وماذا أضمرت ضمائرهم!

(رقيب على المبصرات؛ فيبصر مكانهم، رقيب على المسموعات؛ فيسمع كلامهم، رقيب على ما قام في قلوبهم؛ فيعلمه سبحانه وتعالى).

هو سبحانه وتعالى مطّلع على ما أكنته الصدور، تفهمها هذه في آية المجادلة بالتفصيل، كأنه يُقال: معهم تمام المعيّة؛ فإذا كان اثنين هو ثالثهم؛ فكيف سيكون اطلاعه عليهم؟! سيكون كامل الاطّلاع، كأنهم أشركوه في نجواهم، و أصواتهم لن تكون منخفضة بالنسبة له سبحانه وتعالى، بل هو شهيد عليهم (يعني في حكم الخلق اسمها نجوى، اسمه صوت منخفض، لكن هو سبحانه وتعالى رقيب له تمام الاطلاع، يسمعه تمام السمع، ثم لو أردت أن تتكلم عن المكان مهما ابتعدوا فهو سبحانه وتعالى محيط بهم).

---

١ [المجادلة: ٧]

و لك أن تتصور السماوات والأرض، ليس هم فقط، ولا قطعة الأرض التي هم فيها، ولا حتى الكرة الأرضية كلها، ولا درب التبانة، ولا المجرات كلها، بل السموات السبع والأرضون السبع في يد الله كخردلة في يد أحدكم، {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه}!

فتصور تمام إحاطة الله عز وجل بهؤلاء الخلق، وتمام غفلتهم عن ذلك.

رقيب للمبصرات، رقيب للمسموعات، ورقيب على جميع المخلوقات بعلمه المحيط بكل شيء.

يبقى الآن، من أين أتينا بحفيظ؟ نكمل الآية: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ): هذا الذي عاملهم الله عز وجل به باسمه الرقيب، حفظه عليهم، أنه في يوم كذا فعلوا كذا، قالوا كذا، تناجوا بكذا، (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ثم يقول الله عز وجل لهم، يخبرهم تأكيدًا لرقابته: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

ننتقل **لآية الزخرف** ونسير نفس السير، ماذا يقول الله عز وجل لمن لا يعرفه حق المعرفة، ماذا يحسبون؟ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) الجواب: (بلى) لأنه الرقيب ليس هناك في حقه ما يسمى سراً، وأيضاً له رسل تكتب ما يتسارّون به، وما يتناجون به، فالله مطلع على كل ما تفعله، وهو أيضاً محفوظٌ، لذلك عليك أن تفكر في أمرين: فكّر في **الجزاء**، وهذا أمر عظيم: وأنت تَتَسَارّ وتُخفي عن الخلق ما تستحي أن يعرفوه، فكر في الجزاء الذي سيكون من الله!

ثم فكر في أمر آخر مهم وهو: **الحياء**،

غالب النجوى – ليست كلها – سببها الحياء من إظهارها، أحْكِي أشياء أستحي أن أُشْهرها، فتصور الحياء الذي يقع في قلب الشخص من الخلق، ولا يقع في القلب من الله، نحن نستحي من الناس أن يطلعوا على هذه النجوى التي فيها ذم للوالدين مثلًا، أو ذم للزوج، أو غيبة لغيرهم)، إلى آخر ما تتصور، ولا نستحي من رقابة الله العظيم!

---

١ [الزخرف ٨٠]

وهذا لا يعني أنه ليس هناك نجوى في خير، معروف في السياقات أن هناك نجوى في الخير، لكن نتكلم عن النجوى في إبطان الشر، والتسارر به، فكأنه يُقال: ناجيت لأنك تستحي، فالله أحق أن تعظمه في قلبك، وتستحي منه!

المناجاة في الغالب سببها الحياء، ومن المؤكد أن المناجاة في الشر خير من المجاهرة به؛ لكن لا زلنا نقول أنه علينا أن نستحي، وأن لا يغيب عن خواطرنا أن الله رقيب يسمع سرنا ونجوانا، وإن الغفلة عن هذا من الشيطان.

يوسوس الشيطان لبعض الناس بما يجعلهم يقولون: لو كان يسمعنا لخَسَفَ بنا الأرض، لو كان يسمعنا لأنزل علينا عقوبة، بما أننا لا نرى عقوبات عاجلة؛ إذًا لا يعلم الله ما نحن فيه!

هذا هو ظن أهل الكفر: لو كنتَ رسولًا فأمطر علينا حجارةً من السماء، لو كنتَ رسولًا اخسف بنا الأرض، لا يوجد حل آخر!

هكذا الشيطان يوسوس للناس على مستويات مختلفة؛ فلبعضهم يقول: كونه لم يعاقبكم فهذا دليل عدم اطلاعه – وهذا من سوء الظن بالله الذي يعامل أخطاءهم بحلمه–، وبعضهم الآخر يوقعه بالغفلة، والغفلة مشكلة طويلة، ثقيلة، تحتاج إلى التفاتة جدية عاجلة لحلها، وقد اتفقنا أن علاجها في أمرين لا ثالث لهما:

١– دائماً مدَّ لقلبك غذاءً: يصاب قلبك بالوهن والضعف إن لم تغذه بالعلم عن الله، لأن حياتك تدور حول العلم عن خالقك، لو تغذى قلبك بالعلم عنه لن تقع عينك على شيء إلا ترى لله فيه آية، و لك فيه عبرة، ستعيش الحياة على ذلك! كثيراً ما تجد الإنسان يعلم أن الله (رقيب)، (سميع)، (بصير)؛ لكن هذا العلم لا يتحول لباعث على التقوى!، لماذا؟ لأنه علم ضعيف، لم يُغذَّ، قد قطع عنه الإمداد، وإنما لخسارة ما بعدها خسارة!

يجب أن تعلم عن الله علمًا له من القوة ما يجعله يتحول إلى سبب للتقوى، وإن الله لأهل للتقوى، أهل أن تبذل لأجل العلم عنه الأوقات والأنفاس!

٢- ادفع ما استطعت من الانشغالات: انشغل القلب بـ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) ، والقلب محل واحد إن ملأته[1]بالخل؛ فلن تستطيع ملأه بالزيت، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فانظر لنفسك بم تشغله، واعلم أنه سيفيض بما تضعه فيه؛ فلا تظلمه وقد علمت أن الله خلقه لمعرفته وحبه وتعظيمه!

وهذا لا يعني أن تطالب نفسك بالقفز، لمجرد سماعك درسًا أو درسين عن الله؛ لا تطلب أن تجد الأثر مرة واحدة؛ فالقلب يتردد بين ضعف وقوة؛ ولكن اعلم أنك كلما غذيته كلما أسست لصلاحك!

والجهاد هو: أن تغفل ثم تردّ نفسك، وإننا لو أردنا الوصول لحد ألا نغفل ولا نخطئ، ولا يأتي في قلوبنا كبر و نُدافعه، ولا يأتي في قلوبنا حسد وندافعه؛ هذا يعني أننا أصبحنا ملائكة تسير في الطرقات!، والأمر ليس كذلك؛ بل الفشل يولد نجاحاً، فلا تيأس من روح الله.

كونك تموت والله عز وجل ينظر إلى قلبك تجاهد ما ابتلاك به هذا هو النجاح، ألا ترى ذاك الذي قتل تسعًا وتسعين نفساً ثم أتمها بالمائة، كيف نجح؟ لم يقم بعد بشيء، لكن نظر الله إلى قلبه فوجده راغباً في التوبة، سلَك بعض طريقها فقط، لم يصل بعد، ثم كما في بعض الروايات وُفِّق أن ينزاح بصدره شبرًا إلى البلد الآخر، فقاست الملائكة – وهذا من تمام فضله على الخلق – المسافتين، وجدت هذا الشبر قرّبه إلى القرية الثانية، مما دل على قوة تعلقه بطلب الرضا؛ **فلو نظر الله إلى قلبك وأنت متعلق بالرضا، وقد ابتلاك ابتلاءات في نفسك، وهذه الابتلاءات عظيمة، ورأى منك مجاهدة لها وليس استسلامًا؛ لقد فزتَ والله**، حتى لو لم تصل بعد؛ فهل كل من خرج للجهاد فاز هو بنفسه؟ لا. قد يذهب هو، لكن قومه يفوزون، وقد لا يفوز أحد منهم؛ لكن الله ينظر إلى جهادهم ويقدره: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) ليس الذين غلبوا، إنما (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) . لا تُيَئسوا أنفسكم، افتحوا لأنفسكم باب رحمة الله، وباب رحمة الله واسع، **دورك الذي يتكرر هو أن تبقى مجاهداً**.

١ [التكاثر ١]
٢ [العنكبوت ٦٩]

نرى في أنفسنا شخصًا عاش سنين بلا تفكير، ثم هداه الله إلى الحق و قد تأسس قلبه على مجموعة أفكار معينة؛ فكلما جاهد لطلب الحق، كلما نظر الله إليه نظر الرحمة، نحن نثق أن رحمته واسعة، رحمته سبقت غضبه سبحانه وتعالى، فقط أره الجهاد، وهل تظن أن الجنة بعملك؟ (**الجنة أعمال عُظِّمت!عظّمها الغفور الشكور**).

ألم تر ذاك الرجل الذي أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين؟ نظر الله إلى قلبه فرآه لا يريد إلا الله؛ فشكر له؛ فغفر له وأدخله الجنة؟!

ألم تر إلى تلك المرأة البغي؟ أرادت تجارة لن تبور بإخلاصها لله في ماذا؟ في سقي الماء لحيوان! لاحظ أن الذي وُصف في الحديث كلب لا يُثني، وفي صحراء ليس حولها من يثني، فما كانت تنتظر من أحد الثناء، ما أرادت إلا وجه الله؛ فنظر الله عز وجل إلى قلب ما أراد إلاّ وجهه سبحانه وتعالى؛ فغفر لصاحبه كل تلك الكبائر! لا يريد الله منك إلا جهادًا، لا يريد أن يراك مستسلمًا لعيوبك وأمراضك،

وهذا مثله مثل كل الأسباب التي تأخذها في الدنيا، أسباب دخول الجنة مثل أسباب سعيك للرزق في الدنيا، يقال لك: رزقك مكتوب، لكن ما هو المطلوب منك؟ أن تسعى، فحين تسعى يأتيك رزقك، ويبارك لك، أنت كذلك في الآخرة: خذ أسباب رضا الله عز وجل، اسع لها، وحين تسعى لها يعاملك الله باسم (الغفور الشكور)؛ فيدخلك جنته!

ألم تسمع الله عز وجل في فاطر يقول: { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ } (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ[1] مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) ثم في نفس السورة أخبر أنهم قالوا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ[3]) يعني هذا الذي بلغناه لم نبلغه بعملنا، بل لأنه عاملنا بمغفرته؛ فغفر لنا تقصيرنا، وعاملنا بشكره فشكر لنا قليل العمل، وهذا الذي يجعل العبد يبقى زمناً طويلاً في ضلالة، ثم حين يهتدي ويصدق؛ يختم له بخاتمة حسنة: إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا عَسَلَهُ "، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وما عسله قَالَ: " يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ) فكأنَّه مرَّغَهُ في العسل. فانظر[4] إلى رحمة الله، المطَّلِع على ما قام في القلوب.

١ [فاطر: ٢٩]
٢ [فاطر: ٣٠]
٣ [فاطر: ٣٤]
٤ [مسند ابن أبي شيبة]

ألم تسمع خبر السحرة، وقد نظر الله إلى قلوبهم، وفيها تعظيم لربهم، وخوف منه؛ فنفعهم الله بذاك الخوف وجعلهم أول من آمن؟!

كل هذا من آثار اسم (الرقيب)، كل هذا دليل على أنه سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب فيعاملها، فنسأل الله عز وجل أن ينظر إلى قلوبنا فيراها حقًّا ترجوه، حقًّا تطوف حول رضاه، حقًّا تسعى إلى ثنائه وحده لا شريك له! انتهى لقاؤنا، جزاكم الله خيراً. السلام عليكم ورحمة الله.